الفيلسوف...
والمرأة



أرسطو.. والمرأة

تأليف

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت



مكتبة مدبولي

أرسطو .. والمرأة

سلسلة الفيلسوف .... والمرأة
بإشراف الأستاذ الدكتور / إمام عبد الفتاح إمام

صدر منها :

(١) « أفلاطون .. والمرأة » د. إمام عبد الفتاح إمام

تحت الطبع

(٣) « الفيلسوف المسيحى .. والمرأة » بقلم د. إمام عبد الفتاح إمام

مكتبة مدبولى
الطبعة الأولى
١٩٩٦

الفيلسوف .... والمرأة

ـ ٢ ـ

أرسطو .. والمرأة

تأليف

أ. د. إمام عبد الفتاح إمام

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
جامعة الكويت

الطبعة الأولى

مكتبة مدبولي
القاهرة

مقدمة

"الصورة التى رسمها أرسطو للمرأة بالغة الأهمية ، فقد ترسبت فى أعماق الثقافة الغربية ، وأصبحت الهادى والمرشد عن النساء بصفة عامة ! "

سوزان بل *S. Bell*

" الرجل الأمريكى الأبيض يهبط بالزنجى إلى مستوى ماسح الأحذية ، ثم يستنتج من ذلك أن الزنجى لا يصلح إلا لمسح الأحذية ! "

برنارد شو

مقدمة

إذا كان أفلاطون قد لخّص من الناحية الفلسفية ـ وضع المرأة اليونانية ـ على نحو ما كان قائماً فى مجتمعه ، فإن أرسطو قد قننّ هذا الوضع عندما بذل جهده ليضع نظرية فلسفية عن المرأة ، يستمد دعامتها الأساسية من الميتافيزيقا ، ثم راح يطبقها فى ميدان البيولوجيا أولاً ، والأخلاق والسياسة بعد ذلك ، ليثبت فلسفياً صحة الوضع المتدنى للمرأة الذى وضعتها فيه العادات والتقاليد اليونانية .

وتأتى خطورة نظرية أرسطو عن المرأة من أنها ترددت بعد ذلك بكثرة فى تراثنا العربى ، ربما لأنها وجدت أرضاً خصبة مهيأة لتقبلها ، بما تحتوى عليه من آراء مماثلة لا ينقصها سوى التنظير ! تماماً مثلما حدث فى التراث الغربى ، وفى هذا المعنى تقول سوزان بل S. Bell : « إن الصورة التى رسمها أرسطو للمرأة بالغة الأهمية ، وذات أثر هائل ، فقد ترسبت فى أعماق الثقافة الغربية ، وأصبحت هى الهادى والمرشد عن النساء بصفة عامة ! »[1] . وهى عبارة تصدق بنصها على التراث العربى ، فلو أنك أمعنت النظر قليلاً لوجدت عبارات أرسطو وأفكاره عن سرعة انفعالات المرأة وعنفها ، وعن جنس الإناث الرقيق الحساس العاطفى ، سريع التأثر ، الذى ينقاد لعوامل الشعور أكثر مما يسترشد بنور العقل ؛ ولهذا فهو جنس أقل استعداداً للرئاسة من جنس الرّجل ؛ لأن الرئاسة قيادة تستوحى العقل لا الشعور[2] .

كذلك سنجد أفكار أرسطو عن المرأة متناثرة فى تراثنا هنا وهناك ، حتى لقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من ثقافتنا عموماً ، تجدها عند المثقف ، والمفكر ، والفيلسوف ، كما تجدها عند رجل الشارع سواء بسواء ! وإن المرء ليعجب أشد العجب عندما يجد مفكراً عملاقاً كالإمام الغزالى يرى « أن النكاح نوع من الرق ، فهى أى (الزوجة) رقيقة له (للزوج) ، وبما أنه نوع من الرق ، فطاعة الزوج عليها مطلقة فى كل ما طلب منها فى نفسها مما لا معصية فيه ! »[3] ولا يجد فيه مشاركة وتعاطفاً ومودة ورحمة كماجاء فى نص القرآن

---

(1) Susan G. Women from the Greeks to the french Revolution p. 17. Stanford University Press, 1973 .

(٢) قارن د. محمد يوسف موسى « نظام الحكم فى الإسلام » ص ٥٤ دار الكتاب العربى .

(٣) إحياء علوم الدين جـ٢ ص ٦٤ ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٩٧٨ .

الكرى ! حتى وصل الأمر إلى إضافة طاعة الزوج إلى مبادئ الإسلام ! ، وقد « عرض الإمام الغزالى بعض الحقائق الاجتماعية السائدة التى تحطّ من قيمة المرأة وقدرها مستنداً فى ذلك إلى أحاديث متواترة يصعب الأخذ بصحة معظمها ! »[1] .

كذلك يرى الإمام الغزالى أن الفائدة الأولى من النكاح هى الولد ، وهو الأصل ، وله وضع النكاح[2] ، فالنكاح لا يوجد بسبب الشهوة ، وإنما خلقت الشهوة كباعثة ، مستحثة بالفحل فى إخراج البذور ، سوبالأنثى فى التمكين من الحرث ! (٣) .

وهناك أفكار أخرى كثيرة سوف تتردد طوال هذا البحث يشعر القارئ معها أن ما يقوله أرسطو ليس غريباً عنه ، بل إن رجل الشارع أصبح يردد بعضها فى يقين وثقة ، فمن منا لم يسمع عن تدنى ذكاء المرأة ، ونقص العقل عندها ، وعدم اتزانها فى الحكم على الأشياء ، وعدم صلاحيتها للسياسة ، أو القيادة ، أو إدارة شئون الدولة ... إلخ حتى إذا ما رأى أمامه نماذج لامعة من الشرق والغرب على السواء ، جحدها عامداً دون أن يجهد نفسه فى البحث عن تفسير لها ، أو يسأل : كيف تتسق مع أفكاره ؟ « مارجريت تاتشر » تتربع على قمة الحكم فى إنجلترا ، وأنديرا غاندى فى الهند ، حتى فى الشرق « بى نظير بوتو » فى باكستان ، وقبل ذلك وبعده : جولدا مائير ، التى ذقنا المر على يديها فى إسرائيل ! ، ذلك كله لا يجعله يسأل نفسه ولو مرة واحدة : أيكون سائق سيارة تاتشر أو «بى » أو « أنديرا » أرجح منها عقلاً لمجرد أنه رجل وهى امرأة ؟ . أيكون الساعى أو الحارس ــ الذى يقف على بابها ــ أقدر منها على إدارة الدولة ، أو أكثر اتزاناً فى الحكم على الأشياء لمجرد أنها امرأة ، وأنه رجل ؟ أى تخلف ... !

غير أن أرسطو لا يكتفى بهذا القدر من نقائص المرأة ، وإنما يضيف إليها عدم قدرتها على ممارسة الفضائل الأخلاقية المختلفة على نحو ما يفعل الرجل ، وعدم قدرتها على شغل أى منصب اجتماعى ، أو ثقافى ، أو حتى قيادة المنزل . إن مهمتها تقتصر فقط على الإنجاب ، بل إن مسئوليتها تكون كاملة إنْ هى أنجبت الإناث ! وهى فكرة كانت ، وربما

---

(١) الدكتور أحمد الخواجه « الآداب التعاملية فى فكر الإمام الغزالى » ص ٤٧ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ــ بيروت ١٩٨٦ .

(٢) احياء علوم الدين جـ ٢ ص ٢٨ .

(٣) الدكتور أحمد الخواجه : الآداب التعاملية ص ٤٨ .

مازالت ، شائعة جداً فى مجتمعنا العربى ـ فى حين يكون الرجل ـ هو الذى ينجب الذكور[1] . والطبيعة لا تنجب الإناث إلا إذا انحرفت عن مسارها الصحيح ، إلى آخر تلك الأفكار الأرسطية التى لا حصر لها ، تجدها متناثرة هنا وهناك ، يرتدى بعضها ـ للأسف ـ زياً دينياً ليكون أكثر عمقاً ونفاذاً ـ أقحموه على الإسلام الذى رفع المرأة العربية من حضيض الجهل والتخلف ، بعد أن كانت تورث مع ممتلكات الرجل ، إلى أعلى المراتب الاجتماعية عندما جعلها قيّمة على نفسها ومالها وزوجها ... إلخ .

ومن هنا تأتى أهمية دراسة نظرية أرسطو عن المرأة ، ومقارنة آرائه وأفكاره عنها بما يقال فى تراثنا العربى ، قديماً وحديثاً ! [2] .

ولقد سبق أن لاحظنا أن الصفات المختلفة التى توصف بها المرأة الشرقية الآن[3] ، كانت هى صفات المرأة فى أثينا ، فى حين أن المرأة الشرقية فى مصر القديمة مثلاً ، أذهلت المؤرخ اليونانى هيرودوت لنشاطها ومشاركتها الرجل فى جميع مناحى الحياة : فى البيت ، والتجارة ، والزراعة ، والأسواق ، والسياسة ، حتى أنها وصلت إلى أعلى المناصب السياسية عندما حكمت البلاد بمفردها ، أو مع زوجها[4] .

ويقول ديودور الصقلى : « إنها كانت تنال من السلطة والتكريم أكثر مما ينال الملك ، ويرجع هذا إلى الذكرى المجيدة ، التى خلفتها فى مصر الإلهة : إيزيس ....»[5] ، وكانت

---

(١) بل إن القابلة نفسها تتحمل جانباً من مسئولية جنس « الجنين » الذى ساعدت فى ولادته ، فإن كانت المولودة أنثى ، نالت نصف المبلغ المقرر ، وخرجت من باب الدار الخلفى ! راجع مقالنا « ذكر وأنثى » فى كتاب « أفكار ومواقف » .

(٢) قارن مثلاً « شر خصال الرجل خير خصال النساء : البخل ، والزهو ، والجبن ... » إحياء علوم الدين مجلد ٢ ص ٤٤ . وهى نفس فكرة أرسطو التى تقول : ليس من المناسب أن تتحلى المرأة بفضائل الرجل أى أن تكون قوية أو شجاعة أو ذكية أو بارعة ..... إلخ Aristotle: Poetics,XV, 1454-A وأيضاً : « الصمت هو زينة المرأة وتاجها ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للرجل » ، السياسة ١٢٦٠ ـ أ المجلد الثانى من مجموعة مؤلفاته ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٣) فى بحثنا « أفلاطون ... والمرأة » ص ٢٦ ـ ٢٧ ولا سيما حاشية رقم ٤١ .

(٤) انظر ما يقوله ول ديورانت فى قصة الحضارة ، كيف كانت المرأة المصرية القديمة إيجابية حتى فى مسائل الخطبة ، فقد كانت هى البادئة ! مجلد ٢ ص ٩٨ ـ « سيطرة المرأة المصرية على شئونها الخاصة هى التى جعلت قتل الأطفال أمراً نادر الحدوث » مجلد ٢ ص ٩٨ .

(٥) جوستاف لوبون « الحضارة المصرية القديمة » ص ١٣ نقلاً عن د. أحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى» ص ٧١ نهضة مصر عام ١٩٨٠ .

الزوجة جليلة القدر ، حتى أن الملك لا يكاد يُصَـوَّر على الآثار إلا مع زوجته ، بل كان أغلى قسم عند « إخناتون » أن يقسم بنفرتيتي ـ زوجته ـ ! التى لم تنجب له سوى البنات، ومع ذلك رفض أن يتزوج بأخرى لينجب الولد ! غير أن ذلك لم يكن مسألة تقتصر على الملوك الفراعنة ، أو الطبقة العالية فى المجتمع المصرى فحسب ، بل كان كذلك بالنسبة لجميع الطبقات « كانت النساء يحضرن مع أزواجهن الحفلات العامة ، وهذا مظهر لم يعهده العالم القديم ، ولا الشرق الحديث ، فالمصرى كانت امرأته بجانبه أينما وجد . ولم يكن من الأدب المرعى الفصل بين زوجين ، فالزوج المصرى وزوجته يجتازان الحياة واليد فى اليد ، كما نرى فى الصور التى على القبور »[1] .

ومعنى ذلك أن بعض المجتمعات الشرقية ، قديماً ، كانت أكثر تحضراً من المجتمع اليونانى الذى وضع المرأة فى مركز متدنٍ غاية التدنى ، وجعل الرجل هو السيد المسيطر الآمر الناهى[2] ، وهو وضع عبَّرت عنه فلسفة أفلاطون ثم قـنَّنته فلسفة أرسطو ! ، وإذا كانت المجتمعات الغربية قد تخلصت شيئاً فشيئاً من هذه الأفكار الأرسطية ، فإن المجتمعات الشرقية لا تزال تحافظ عليها ، ضنينة بها ، كما لو كانت كنزاً لا يفنى ـ وهى كذلك بالفعل بالنسبة لمجتمع الذكور ـ بل إنها جاهدت لتضفى على هذه الأفكار شيئاً من القداسة !

ولكى نفهم بعمق جذور هذه النظرية الأرسطية التى أثرت فى تفكيرنا ، ولا تزال رائدة فى حياتنا الثقافية[3] ، فإن علينا أن نفهم مجموعة من أفكاره الفلسفية الأساسية ، ولهذا

---

(١) جوستاف لوبون « الحضارة المصرية القديمة » ٦٣ ، ترجمة محمد صادق رستم ، المطبعة العصرية .
وانظر أيضاً الدكتور/ أحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى » ص ٧٠ ـ ٧١ دار نهضة مصر بالقاهرة عام ١٩٨٠ .

(٢) كلما تأملت الصورة التى رسمها نجيب محفوظ فى الثلاثية للرجل الشرقى المسيطر الآمر الناهى على حريمه ، القابع فى ركن قصى من المنزل الكبير ، ثم سهراته خارج المنزل مع الغوانى والخلان ... إلخ تنطبع فى ذهنى فى الحال صورة الرجل الأثينى الذى كان « يحبس الحريم » فى المنزل لتكون له حياته الخاصة خارجه ، وهو أمر فصلناه فى بحثنا عن « أفلاطون ... والمرأة » ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) قد يقول قائل : ولِمَ نقول أنه تراث أرسطو ؟ ألم يكن تراثاً شرقياً أيضاً باستثناءات قليلة مثل مصر وبابل .. ؟ « فالفارسى كان يتصرف فى المرأة كما يتصرف فى سلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت « قاسم أمين تحرير المرأة » ص ٢٣ وهى لم تتعلم فى كثير من أقطار الشرق سوى تدبير المنزل ، وكانت فى الجاهلية فى منزلة دنيا حتى أن مولدها كان يجلب الحسرة واللوعة ، وربما القتل والوأد !! كما =

جعلنا الباب الأول عن الخلفية الفلسفية فى بناء النظرية ، نتحدث فيه عن الرغبة فى المعرفة بصفة عامة ، والمعرفة الفلسفية بصفة خاصة ، ثم كان لابد أن نعرض بعض الدعائم التى دعم بها أرسطو موقفه واستمدها من ميتافيزيقاه ، كذلك التطبيقات التى قام بها بعد تكوين نظريته عـــن المـرأة ولاسيما فى ميدان السياسـة والأخـــلاق ، ثـم لنـرى بعد ذلك كيف جعل « البيولوجيا » ـ وهو أعظم علمائها قديماً ـ تساند موقفه . وهكذا نجد أن أرسطو جعل من فلسفته كلها جوانب أو جدراناً تدعم هذه النظرية .

* * *

وقبل أن نختتم هذه المقدمة لابد أن نقول : إننا لا نعلم من حياة أرسطو الخاصة ما قد يفسر كراهيته للمرأة ، فلا يبقى سوى أنه كان يقنن ـ كما سبق أن قلنا ـ ما كان شائعاً فى التراث اليونانى من هذه الكراهية ! فقد تزوج أرسطو مرتين : الأولى من بيثياس Pythias ابنة أخت صديقه ، وزميل دراسته فى أكاديمية أفلاطون هرمياس Hermias ، ولا نعرف الكثير عن هذا الزواج ، وإنْ كان البعض ومنهم « تيلور » ، يعتقدون أنه كان زواجاً سعيداً[1] ، ويبدو أنه كان كذلك فعلاً لسببين :

الأول : أنه أنجب طفلة من زوجته هذه أطلق عليها نفس اسم الأم « بثياس » .

والثانى : أنه كتب فى وصيته يوصى بأن ينقل رفات هذه الزوجة ـ وقد كانت توفيت قبله بفترة طويلة ـ لتدفن معه فى قبره « وحيثما أدفن فلتجمع رفات زوجتى بثياس Pythias وتوضع معى فى قبرى بجوار جثمانى فقد كانت تلك رغبتها »[2] ... .

= كانت الزوجة ترسل كما هو الحال فى أسبرطة ، للاستبضاع من غير زوجها ، ولا يمانع الرجل العربى أن ينسب المولود لنفسه ! وكانت إذا مات زوجها ورثها الابن الأكبر ... إلخ ـ والجواب على ذلك كله بالإيجاب ـ نعم . كان التراث الشرقى الذكورى يكن كراهية شديدة للمرأة ، ولم ينتظر اليونان حتى ينقلوا له هذه الكراهية ! ولكن خطورة أرسطو تكمن فى أنه فلّسف هذه الكراهية ، وقدّم لها المبررات العقلية ، والسياسية ، والأخلاقية ، والبيولوجية ، وعندها ترسبت هذه الكراهية فى أعماق اللاوعى مدعومة بالبراهين والأدلة والأسانيد التى أضفى عليها البعض ثوباً دينياً ! .

(١) ألفرد إدوارد تايلور « أرسطو » ص ١٧ ترجمة د. عزت قرنى دار الطليعة بيروت ١٩٩٢ م .

(٢) Werner Jaeger : Atistotle Trans by R. Robinson on p.303.Oxford University Press 1967 .

أما المرة الثانية ـ فقد تزوج أرسطو من سيدة تدعى هربيليس Herpyllis أنجبت له ابنه نيقوماخوس ـ الذى أهداه كتابه عن الأخلاق ـ وهو يشير إلى طيبتها وحسن معاملتها له أكثر من مرة ، إذ يطلب من نيكانور Nicanor منفذ الوصية « إكراماً » لذكراى ، ومن أجل عواطف هربيليس النبيلة نحوى ـ أن يعتنى بها ويرعاها فى جميع الأمور ، وإذا ما رغبت فى الزواج بعد وفاتى ، فعليه أن يزوجها لشخص لا يكون تافهاً ، أو غير جدير بها، وإلى جانب ما أخذته بالفعل ، فعليه أن يعطيها وزنة من الفضة خارج نصيبها ، وثلاث خادمات تختارهن بنفسها ، بالإضافة إلى الخادمة التى لديها بالفعل ، وكذلك إلى جانب الخادم بيرهايس Pyrrhaeus ، وإذا فضلت أن تبقى فى مدينة خالقيس Chalcis فلها بيتى بالحديقة ، وإذا اختارت أن تعيش فى مدينة استاجيرا Stagira فلها بيت أبى هناك ! وعلى المنفذين لهذه الوصية أن يقوموا بتأثيث المسكن الذى تختاره من هذين المسكنين بالأثاث اللائق الذى يرونه مناسباً ، والذى توافق عليه هربيليس وتستحسنه بنفسها(١) .

من هذه الوصية التى نشرها مؤرخ الفلسفة الألمانى « فرنر ييجر Werner Jaeger » فى كتابه « أرسطو : أساسيات تاريخ تطوره » عام ١٩٢٣(٢) يتضح أنه كان يعيش حياة أسرية يغمرها « الجو الإنسانى » على حد تعبير ييجر نفسه ! .

علينا أن نتوقف قليلاً عند هذه الوصية لنسوق بعض الملاحظات الهامة :

الملاحظة الأولى :

لابد أن نشير إلى الرقة المتناهية ، والوفاء ، والإخلاص الواضح لزوجتيه : الأولى ، والثانية .. ! وتلك مسألة نقدرها للمعلم الأول حق التقدير ، فهو يطلب من مُنَفِّذ الوصية أن ينقل رفات زوجته الأولى لتدفن إلى جواره ، ويشرف ـ بعد موته ـ على زواج الثانية ، وإذا رغبت فى الزواج ويشترط أن يكون زوجه الجديد رجلاً فاضلاً !

---

(١) Ibid . p 322-3 .

(٢) كما نشرها بارنز J.Barnes ضمن المؤلفات الكاملة لأرسطو التى أصدرتها جامعة برنستون عام ١٩٨٥ م ، وهى أحدث نشرة لمؤلفات المعلم الأول ـ ونحن نعتمد عليها ونحيل إليها باستمرار ـ انظر بشأن الوصية . المجلد الثانى ص ٢٤٦٤ ، وكان ديوجنز اللايرتى قد نشر هذه الوصية نفسها فى كتابه « حياة أعلام الفلاسفة » المجلد الأول ص ٤٥٥ وما بعدها .

الملاحظة الثانية :

أنه لا يتخلى عن عادات وتقاليد المواطن الأثينى العادى ـ أعنى رجل الشارع ـ بصدد ابنته بثياس Pythias التى يقول عنها فى الوصية « ... فإنْ بلغت ابنتى سن النضوج فعليهم أن يزوجوها إلى نيكانور Nicanor فإن حدث أن ماتت (لا قدَّر الله !) قبل أن تتزوج ، أو بعد أن تزوجت ، دون أن يكون لها أبناء ، فإننى أوصى أن يقوم نيكانور بتحمل المسئولية ، وإدارة شئون ابنى نيقوماخوس بالطريقة المألوفة »[1] .

فنحن نجد هنا أن أرسطو لم يتخل قط عن السلطة الأبوية التى كان يتمتع بها الرجل الأثينى ، فهو وحده صاحب الحق فى تزويج الفتاة (بل أيضا والأرملة بعد وفاته ، إذ يضع مواصفات خاصة للرجل الذى ينبغى أن يتزوجها !) ، وكما قال أفلاطون من قبل « من له الحق فى ممارسة إجراءات خطبة الفتاة وعقد قرانها هو الأب بالدرجة الأولى ، فإذا لم يكن الأب موجوداً فالجد بالدرجة الثانية »[2] ...

الملاحظة الثالثة :

أن أرسطو يوصى بتزويج ابنته شخصاً معيناً هو « نيكانور » الذى كان والده وصياً على أرسطو من قبل ، كما كانت أمه هى أم أرسطو بالرضاعة ، وقد توفيا قبل فترة طويلة ، فتبنى فيلسوفنا ابنهما نيكانور وأصبح أباً له . ثم أصبح هذا الابن ضابطاً فى جيش الإسكندر الأكبر ومقرباً منه فيما يبدو[3] .

الملاحظة الرابعة :

أن أرسطو يستمر فى وصيته فيقول : « إذا حدث أن توفى نيكانور لا سمح الله ، قبل أن يتزوج ابنتى ، أو بعد أن يتزوجها ، دون أن يرزق منها بأبناء ، فإن ما يقترحه من ترتيبات سيكون مشروعاً وسليماً ، فإذا ما أراد ثاوفراسطس Theophrastus أن يعيش مع الفتاة ، فستكون له نفس حقوق نيكانور السالفة » .

الملاحظة الخامسة :

لابد للمرء أن يندهش من خضوع المعلم الأول للعادات والتقاليد اليونانية إلى هذا الحد

---

(١) قارن المؤلفات الكاملة ، المجلد الثانى ٢٤٦٤ ـ ٢٤٦٥ .

(٢) أفلاطون : محاورة القوانين ٧٧٥ ، وفى ترجمة جويت المجلد الرابع ص٣٤٣ .

(٣) يروى ييجر إن الإسكندر أرسله إلى اليونانيين ببعض الرسائل الهامة ـ انظر كتابه عن أرسطو ص ٣٢٠.

فهو لا يشير ولو مرة واحدة إلى رغبة الفتاة ، أو سؤالها ، أو يضيف عبارة « بعد موافقتها » ... إلخ ، ليس لها رأى ولا مشورة فى حياتها أو مستقبلها ، مما يؤكد لك أن أرسطو فى نظريته عن المرأة قد خضع للتقاليد اليونانية ودافع عنها بنفس القوة والحماس اللذين دافع بهما عن« الرق » محبذاً فوائده ومزاياه للطرفين : السيد والعبد معاً !

والمرأة الوحيدة التى عرفها أرسطو ، خارج علاقته بزوجتيه - هى أوليمبياس Olympias والدة الإسكندر - ، وكانت معرفة عمل ، وإن كانت شخصية مختلفة عن نسائه أتم الاختلاف !.

فى عام ٣٤٣ دُعى أرسطو إلى بيللا Pella عاصمة مقدونيا ليعمل مؤدّباً للأمير الشاب الإسكندر المقدونى ، وبقى فى بلاط مقدونيا ثمانية أعوام ، عاد بعدها إلى آثينا عام ٣٣٥ ق.م ، ليؤسس اللوقيون Lyceun مدرسته الفلسفية المعروفة .

وفى البلاط الملكى تعرف أرسطو على تلك المرأة القوية : أوليمبياس Olympias والدة الاسكندر ، وزوجة الملك فيليب - وكانت قبل زواجها منه - أميرة أبيروس (البانيا) وكاهنتها فى الوقت نفسه ، ولذلك كانت تريد أن تخلق فى الاسكندر نفساً مسيطرة تتسلط كما تسلطت هى من قبل[١] ، ويصفها المؤرخ الإنجليزى تارن N.N.Tarn بأنها « امرأة لم تكن تعرف أى معنى للاعتدال ، صلفة ، سريعة الانفعال والغضب بصورة مريعة ، وكان لها جانب عاطفى جعل منها إحدى المتحمسات للطقوس والعبادات السرية فى ترقيا ... إلخ[٢] - كانت هذه المرأة تقف وراء ابنها تبث فيه روح العظمة ، والقوة ، والمجد ، وتؤنبه كلما وجدت فيه ضعفاً أو تردداً ، وتشدّه إليها ، وتحتضنه فى الوقت الذى كان فيه أبوه - فيليب مشغولاً عنهما بخمره ونسائه - ولهذا شعر الإسكندر حقاً أنه وأمه يقفان وحدهما ، وأنّ فيليب الذى بقى بعيداً عنهما بمعاذير مختلفة لا يودّهما ... »[٣] ، وكثيراً ما كان أبوه يتهمه بالطراوة والرخاوة فقد كانت غرفة نومه قريبة من حريم النساء[٤] » .. لك

---

(١) هارولد لامب Harold Lamb « الإسكندر المقدونى » ص ١٧ ترجمة عبد الجبار المطلبى ، المكتبة الأهلية ببغداد .

(٢) ن . تارن « الإسكندر الأكبر » ص ٢١ ترجمة زكى على ، ومراجعة د. محمد سليم سالم ، مركز كتب الشرق الأوسط ١٩٦٣ .

(٣) هارولد لامب « الإسكندر المقدونى » ص ١٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠.

شعر ذهبى ، وعينا فتاة ... كيف ستلاقى الخطر ، ها ... ؟ ! »[١].

وقد حصّنت هذه المرأة الحديدية نفسـها قبل أن تـلقى أرسـطو ، فقبـل أن تغامر « أوليمبياس » بزيارة المدرسة الجديدة التى أنشأها أرسطو فى ميزا Mieza لتعليم الإسكندر ورفاقه ، قرأت مآسى « يوربيدس » بعناية ، ولاسيما مسرحيته عن « ميديا » أميرة « كولخيس » وبدا لها أن ميديا Medea كانت تقف مثلها وحيدة ، لم يُعينْها أحدٌ على قوة الرجال سوى السحر ! وكانت تبدو وكأنها إلهة حية فى معبد الحوريات ، نزلت عن عربتها الملكية ، وقد اصـطحبت معها جاريتين جميلتين ، وكان جسمها اللدن يلّفه الحرير الخالص ، والريح تلصقه بجسدها ، وكانت قّلة من النساء المتزوجات هن اللائى يغامرن بالخروج من بيوتهن بوجوه سافرة وأجسام مكشوفة ، كما كانت تفعل أوليمبياس « نزلت المرأة الجميلة من عربتها الملكية فهرول الفيلسوف لاستقبالها وتحيتها ! وقامت بجولة بصحبة المعلم الأول ، وقد تركـت وراءها فى « ميزا » ما يشير إلى أنهـا امرأة ساحرة الجمال ! وقد أبدت ثقتـها بأرسطو فيما يتعلـق بمستقبل ولدهـا الوحيد ! وإن كانت قد أسـّرت إلى أحـد العّرافـين « أرستاندر Aristander » بعد عودتها بقولها : « إن فيلسوف العلم الجديد المسمى أرسطو يلثغ فى كلامه »[٢] ، وليس عنده ما يقوله من أفكار خلاقة ! وربما عادت شهرته إلى أنه واحد من تلامذة أفلاطون المفّضلين »[٣] !.

* * *

(١) المرجع نفسه ص ٢٩ .

(٢) يصف ديوجنيز اللايرتى أرسطو بقوله :

« كان أرسطو ألثغ ، نحيل الساقين ، ضيق العينين ، يلفت النظر بزيه وخاتمه ، وقصة شعره ! » المجلد الأول من كتابه « حياة أعلام الفلسـفة » ص ٤٤٥ ترجمة د. د. هيكس.

(٣) هارولد لامب « الاسكندر المقدونى » ص ٣٣ ـ ٣٤.

الباب الأول

بناء النظرية

« علينا أن نتفلسف إذا اقتضى الأمر التفلسف ، فإذا لم يقتض الأمر التفلسف ، وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له ! » .

أرسطو : بروتربتكوس Protrepticus

« المؤلفات الكاملة المجلد الثاني ص ٢٤١٦ »

الفصــل الأول

« لبنــات مــن الابســتمولوجيــا »

« البـداية هـى المبادئ التى يحـددها العقل ، فـهو الأسـاس الأول للعلـم .. وتقـودنا هذه المـبادئ إلى العلـل التى هـى المقـدمـات والـوقائع الـتى نلاحظها هـى النتـائج ، فمبـادئ الإبسـتـمولـوجـيا تتحدد طبقاً للنظام العقلى للعالم ... »

* ليندا لانج : المرأة ليست حيواناً عاقلاً ص ٧ .
* هرمان راندال : أرسطو ص ٤٦ .

أولاً : الرغبة فى المعرفة

يفتتح أرسطو كتابه « الميتافيزيقا » بقوله :

« إن الناس جميعاً يرغبون بطبيعتهم فى المعرفة ، والدليل على ذلك ما يشعرون به من متعة عندما يستخدمون حواسهم ، فنحن نحب عمل الحواس ـ حتى بغض النظر عن نفعها ـ خصوصاً حاسة البصر، ونحن نفضل الرؤية على أى شئ آخر ، لا فقط من زاوية الفعل بل حتى إذا لم نقدم على فعل ما ، وسبب ذلك أن معظم حواسنا تمكننا من المعرفة ، وتلقى الضوء على اختلافات كثيرة بين الأشياء ... [١] » .

فكيف عرف أرسطو أن لدينا مثل هذه الرغبة ... ؟ ! الجواب : يكمن فيما يقوله عن المتعة التى نحسها فى حواسنا ، فلو كانت المعرفة التى نبحث عنها مجرد وسيلة لغاية أكبر كالسيطرة على الآخرين مثلاً ، فلن تكون رغبتنا الفطرية فى هذه الحالة رغبة فى المعرفة ، وإنما ستكون إرادة القوة ، أو دافعاً للسيطرة ، ومن ثمّ فإن شعورنا بالمتعة من مجرد ممارسة حواسنا هو فى حد ذاته دليل على أن لدينا رغبة فى المعرفة ، إذ على الرغم من أننا نستخدم معرفتنا الحسية فى تنظيم أنفسنا فى العالم وانجاز غايات عملية ، فإننا نسعى مع ذلك وراء هذه المعرفة لذاتها[٢] .

غير أن الإحساس ، وإنْ كان أساساً لمعرفة الجزئى ، فإنه لا يقدّم العلم الحقيقى ، (لأن العلم علم بالكلى كما يقول أرسطو) فما تقدمه الحواس من خبرة لا يرقى إلى مستوى المعرفة العلمية أو الفلسفية ، لأن الحواس تؤدى إلى تكوين الخبرة ، وهى تقدّم لنا معرفة الجزئيات ، والظواهر المختلفة ، كأن نعرف أن النار ساخنة ، وأن دواء معيناً قد شفى سقراط من مرض معين ، وهذه كلها معرفة مفيدة للحياة العملية ، أما إذا حاولنا الارتفاع إلى المعرفة الفلسفية فإننا لا نكتفى بذلك ، وإنما نحاول معرفة العّلة التى تفسر ارتباط الظواهر المشاهدة فى الخبرة الحسية ، إننا نحاول البحث عن السبب أو العلة بقصد الوصول إلى الضرورة : فلماذا تكون النار دائماً ساخنة ؟ ولماذا يشفى هذا الدواء بعينه من هذا المرض أو ذاك ؟ فأصحاب الخبرة قد يعلمون أن شيئاً ما موجود ، لكنهم يجهلون السبب فى وجوده

(١) Aristotle: Metaphysics 980-A - The complete works vol.2 p.1552.

(٢) J. Lear: Aristotle: The desire of understanding p.I .Cambridge 1988 .

أما العلم المسمى بالحكمة أو الفلسفة ، فهو الذى يصل إلى معرفة العِلّة الأولى للوجود ، أى أنه العلم الذى يصل إلى إدراك الكلى الذى يفسر لنا الجزئيات(١) .

ومعنى ذلك أن الخبرة تجميع لإدراكات الحواس التى لا تستطيع أن تدرك سوى الجزئى (النار تحرق ـ هذا الدواء يشفى المريض من الصداع ... إلخ) ، وهذه الخبرات العملية مفيدة للحياة العملية ، لكنهالا ترقى إلى مستوى المعرفة الفلسفية .

أما المعرفة الحقيقية ، فهى المعرفة الفلسفية التى تحاول معرفة العِلّة التى تفسر هذه الظواهر : لِمَ كانت النار تحرق ، ولم كانت ساخنة دائماً ؟ . أو لِمَ كان الدواء الفلانى شافياً من الصداع ؟ . إننا نريد الأساس الكامن وراء الظواهر ، والفلسفة هى العلم الذى يصل إلى معرفة الكلى الذى يُفَسر لنا الجزيئات .

ثانيا : المعرفة الفلسفية :

مهمة الفلسفةعند أرسطو هى إذن ، أن نفهم العالم الذى نعيش فيه بحيث نصل إلى العلل الأولى ، والمبادئ الأساسية التى يقوم عليها ، والمقصود بالعالم هنا : العالم الطبيعى بشقيه : العضوى ، وغير العضوى من ناحية ، ثم العالم الذى صنعناه نحن بأنفسنا ، أعنى العالم الاجتماعى والسياسى والأخلاقى ... إلخ ، من ناحية أخرى . ومعرفة الشئ كما سبق أن ذكرنا تعنى معرفة « العِلّة » التى جعلته على ما هو عليه : كيف وجد ؟ ولِمَ وجد ؟ وما هى الطريقة التى وجد عليها ؟ ... إلخ .

لقد ذهب الإيليون إلى أن الحقيقة لا يمكن أن تتغير ، فالوجود موجود ، ولا يمكن أن يكون غير موجود ، ومن ثَم فإن ما يتغير هو مجرد ظاهر لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة . وواصل أفلاطون تأكيد الفكرة التى استمدها منهم ، وانتهى إلى أن عالم الحس ما دام يتغير فهو غير حقيقى ، لأن الحقيقة تكمن فى عالم المثل الأزلى الذى لا يطرأ عليه كون ولا فساد ، والمعرفة الحقيقية هى معرفة هذا العالم ، ومن ثَم فهى المعرفة بالأزلى ، وبالضرورى ، وبالدائم الذى لا يمكن أن يكون خلاف ما هو عليه .

ثم جاء أرسطو ليواصل دعم الفكرة ذاتها ، وليتساءل فى كتابه « الأخلاق إلى

---

(١) Aristotle: Metaphysics 980-A (vol . 2 . P. 1553).

نيقوماخوس » : ما المعرفة ؟ » ثم يجيب أن الشرط الأساسى للمعرفة بمعناها الدقيق « ... أنّ ما نعرفه لا يمكن أن يكون على خلاف ما هوعليه ... ومن ثَم كان لموضوع المعرفة صفة الضرورة ، ولذلك فهو أزلى أبدى Eternal ، لأن كل ما يحمل صفة الضرورة هو بمعنى ما أزلى ـ وما هو أزلى لا يمكن أن يطرأ عليه كون ولا فساد »[١] ...

فالمعرفة الحقيقية إذن : هى أن نبرهن على وجود الأشياء ، وعلى وجود العالم ككل ، والأجزاء التى يتألف منها ، باحثين عن العلّة التى تجعله على هذا النحو ، وليس على أى نحو آخر .

غير أن هذا المنظور الأرسطى للمعرفة لا يقتصر على معرفة العالم الطبيعى ، وإنما نراه يطبقه كذلك على العالم الإنسانى ، ولهذا نراه يتغلغل بعمق فى كتاباته السياسية والأخلاقية، فلا فارق فى المنهج بين فهمنا لهذين العالمين ، فهو مثلاً يقول فى الأخلاق النيقوماخية وهو يناقش الدور الذى يقوم به فيلسوف أخلاقى : « إن علينا هنا ـ كما هى الحال فى جميع الموضوعات الأخرى ـ أن نبدأ بالظواهر أو الوقائع على نحو ما تظهر ، وبعد أن نناقش المشكلات أو الصعوبات ، نستطرد لكى نبرهن على حقيقة الآراء الشائعة ، إنْ كان ذلك ممكنا »[٢] .

ومعنى ذلك أن أرسطو يتصور أن مهمة فيلسوف الأخلاق هى : تخليص الآراء والمعايير الأخلاقية القائمة مما يشوبها من تناقض أو غموض قد يفسدها أو يشوهها ، وهو يعتقد أن الصواب فيها أرجح من الخطأ ، ومعنى ذلك أن الأخلاق الأرسطية تقليدية إلى حد كبير ، لأنها تقوم بتوضيح المفاهيم السائدة ، وتقديم مبرراتها العقلية ، فأرسطو لا يعتقد أن العالم ينبغى أن يكون على خلاف ما هو عليه ، بل يبدأ بإيمان راسخ بأن الوضع القائم هو فى آن معاً أفضل طريقة لوجود الأشياء ، سواء أكان ذلك وضع الأشياء فى العالم الطبيعى أم العالم الاجتماعى[٣] ، وسوف نرى فيما بعد تطبيقاته فى عالم البيولوجيا أيضاً !

غير أن هذا المنظور المحافظ لم يأخذ به أرسطو بطريقة دجماطية ، بل كان له مبرره الخاص ، وهو الوظيفة التى يؤديها الشئ ـ وهى فكرة استمدها من أستاذه أفلاطون[٤] ـ إذ

---

(١) Aristotle: Ethics 1139-B (vol . IIp . 1799).

(٢) Aristotle: Ethics1125-B (vol. 11p. 1809).

(٣) Susan M. Okin: Women in Western Political Thought p. 73.

(٤) قارن بحثنا « أفلاطون ... والمرأة » ص ٦٦ وما بعدها .

يرى أرسطو أن الأشياء دائماً تكون على ما هى عليه بسبب قيامها بتأدية وظيفتها ، وإذا فقد الشئ وظيفته فقد مبرر وجوده ، وكل شئ يقوم بوظيفة معينة ، وبقاؤه دليل على أنه يقوم بوظيفته خير قيام ، يقول فى بداية كتابه السياسة : « كل شئ يستمد تعريفه من وظيفته، وقدرته على تأديتها ، وينتج من ذلك أنه ما لم تكن الأشياء قادرة على تأدية وظيفتها ، فإنه ينبغى علينا ألا نقول إنها لا تزال هى نفس الأشياء ، وإن كانت تحمل الأسماء ذاتها »[١].

وهكذا كانت فكرة الوظيفة على جانب كبير من الأهمية فى فلسفة أرسطو لفهم العالمين : الطبيعى ، والاجتماعى ، وسوف نعود إليها بعد قليل .

ويهمنا الآن أن نوضح أن هناك مجموعة متطلبات سابقة وضرورية حتى يمكن إدراك الموجودات على ضوء وظائفها ، فنحن لا نستطيع أن نقول عن شئ ما إن له علاقة بغيره إلا من خلال وظيفته ، وهذا هو السبب فى أن الأدوات وأجزاء البدن أمثلة نموذجية للأشياء التى نفكر فيها وظيفياً ، وإذ افترضنا أن وظيفة الموجودات الحيّة توازى ـ بطريقة ما ـ وظائف الموجودات الصناعية ، فلابد من النظر إليها من حيث علاقتها بعضها ببعض وعلاقتها بالعالم ككل ، ويزودنا أرسطو بمثل هذه النظرة إلى العالم .

وعلى الرغم من أن أرسطو يعترف بأن ديمقريطس ، الفيلسوف الطبيعى المبكر ، كان يعرف أن الظواهر الطبيعية ضرورية ، فإنه ينتقده ، لأنه أغفل مفهوم العلة الغائية ، أو الغرض، يقول : « رغم أن ديمقريطس تجاهل العلّة الغائية Final Cause ، فقد ردَّ كل عمليات الطبيعة إلى الضرورة ، وهى بالفعل ضرورية ، لكنها تكون على هذا النحو من أجل تحقيق غرض معين ، أو علة غائية ، أومن أجل تحقيق ماهو أفضل فى كل حالة ، فلا شئ يمنع الأشياء أن تتشكل أو أن تكون على ما هى عليه[٢] .

والعبارة الأخيرة تلفت النظر إلى حقيقة بالغة الأهمية فى مذهب أرسطو ، وهى أن نظرته إلى الكون « هيراركية » أو تصاعدية ، فالكون عند أرسطو مرتّب من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان ، ثم فيما بعد الإنسان من الأجرام السماوية إلى الآلهة ـ وهو منظّم بطريقة تصاعدية دقيقة ، ولهذا استطاع أن يقول إنه فى العالمين : « عالم الطبيعة وعالم الفن[٣] ، نجد باستمرار أن ما هو أدنى موجود لصالح ما هو أعلى ! بل حتى النفس

---

(١) Aristotle: Politics, 1253-A (vol. 11 p. 1988).

(٢) Aristotle : Ibid.

(٣) لابد أن نلاحظ أن تعبير « عالم الفن » هنايعنى معنى أوسع مما يدل عليه اللفظ بكثيـر ، فهو يعنى =

تنقسم إلى ما هو أدنى وما هو أعلى ، وما هو أعلى فيها ، هو كذلك لما لديه من مبدأ عقلى ، وهذا المبدأ نفسه يمكن أن ينقسم إلى قسمين : إذ يوجد فيه جانب نظرى ، وجانب عملى ... وإذا كانت جوانب النفس لها هيراركية تصاعدية ، فلابد أن تكون للأنشطة التى تصدر عنها نفس الهيراركية التصاعدية ... »[1] ، ولقد مكّنه ذلك من أن يصل إلى قاعدته الشهيرة « إن الطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً ! ».

وهكذا نستخلص من نظرية المعرفة الأرسطية مجموعة من الأفكار الهامة :

١ ـ المعرفة تبدأ بالحس ، لكنه لا يشكل علماً لأنه يصلنا بالجزئى ، فى حين أن العلم علم بالكلى ! .

٢ ـ المعرفة الحقيقية هى المعرفة الفلسفية التى تفترق عن الخبرة بأنها لا تكتفى بتحصيل معلومات سريعة عن ظواهر معينة ، وإنما نراها تسأل لِمَ كان الشئ على هذا النحو ولم يكن خلاف ذلك ؟! .

٣ ـ معنى ذلك أن المعرفة الفلسفية تبحث عن العّلة أو السبب ، بحيث يبدو وجود الشئ ضرورياً ، فهذه العّلة هى المبدأ العقلى الكامن وراء الشئ ، وهكذا تصبح المعرفة الحقيقية معرفة الضرورى الذى هو ثابت لا يتغير .

٤ ـ هذا المنظور المعرفى ينطبق على العالم الطبيعى ، فيفسر الموجودات الطبيعية ، كما ينطبق على العالم الإنسانى ، فيفسر الظواهر الاجتماعية سواء بسواء .

٥ ـ لكى نصل إلى هذه المعرفة لابد أن يكون لدينا عدة أفكار أساسية هى أشبه « بالمفاتيح» لهذا المذهب وهى :

أ ـ هيراركية الكون .

ب ـ فكرة الوظيفة .

جـ ـ الهيولى والصورة .

= العالم الذى يخلقه الإنسان أو يصنعه لنفسه ، فالفن يعنى « الصنعة » ! والإنسان فى هذا العالم يخلق ما هو أدنى لينجز ويحقق ما هو أعلى ، والطبيعة فى مسارها تخلق ما هو أدنى كمرحلة فى التطور الذى يهدف بلوغ ما هو أعلى ! قارن مثلاً تعليق أرنست باركر فى ترجمته لكتاب السياسة لأرسطو ص ٣١٧ حاشية ١ .

(١) Aristotle : Politics, 1333-A (Vol. 2p. 2115)

وهو ما سوف نعرض له بشئ من التفصيل فى الفصل القادم لنعرف كيف طبق أرسطو هذه المفاتيح أو الأفكار الأساسية على عالم المرأة ، فهو منذ البداية يسعى إلى الوصول إلى معرفة « فلسفية » عن المرأة ، يعنى أن يعرف لِمَ كان من الضرورى أن يكون وضعها الاجتماعى على هذا النحو ؟ وما هو المبرر العقلى الذى يحتم أن تكون المرأة تابعة للرجل ؟ ولنرى أيضاً كيف طبق الهيراركية فى عالم الأسرة ، فكان الرجل هو الأعلى والمرأة هى الأدنى : «وماهو أدنى موجود لصالح ما هو أعلى » ، ثم كيف أصبحت المرأة هى الهيولى ، والرجل هو الصورة ، والمرأة هى المادة والرجل هو المبدأ العقلى .

وعلى هذا النحو تتحدد وظيفة المرأة ، باختصار لنرى كيف نقل أرسطو ميتافيزيقاه ، وطبقها على عالم المرأة ، وهى نفس ملاحظات فرنسيس بيكون « حول العلاقةبين المنطق وفلسفةالطبيعة » ، حيث جعل أرسطو فلسفة الطبيعة مجرد خادم تابع للمنطق فأحالها بذلك إلى دراسة مثيرة للجدل ، لا نفع فيها على وجه التقريب ... »[1].

* * *

(١) F . Bacon: The New Organon p. 54 ed. By Fuiton H Anderson-The Bobbs-Merrill, N.Y. 1960 .

الفصل الثانى

دعائم ميتافيزيقية

* كانت الأفكار الميتافيزيقية عند أرسطو هى الدعامة الرئيسية في كل ما كتب ...
* نقل أرسطو أفكاره من المنطق والميتافيزيقا ، وطبقها على الطبيعة ...

ف . بيكون : الأورجانون الجديد

أولا : هيراركيةالكون :

الطبيعة عند أرسطو « لا تفعل شيئا باطلاً » كما سبق أن أشرنا ، فقد رتّبت الكون ترتيباً دقيقاً ، ونظمت الموجودات تنظيماً تصاعدياً لا نقص فيه ولا فطور: « ولهذا فإننا لا نستطيع أن نقول إننا نجد أنفسنا باستمرار ـ فى العالمين معاً : عالم الطبيعة ، وعالم الفن ـ أمام ترتيب نجد فيه أن ما هو أدنى موجود لصالح ما هوأعلى ، وما هو أعلى إنما يكون كذلك لسبب ما فيه من مبدأ عقلى... »(١) ، وفى استطاعتنا أن نتبّين بوضوح هذا المبدأ لونظرنا فى الموجودات من أدناها إلى أعلاها ، فالجماد ـ أدنى مراتب الموجودات ـ يقوم على خدمة النبات ، فمِنْ مواده يتغذى ويرتوى ويتنفس ! وكلّما صعدنا درجة ، وجدنا المبدأ نفسه ، يقول أرسطو « فى استطاعتنا أن نقول : إن النبات موجود لصالح الحيوان ، لكن الحيوان أيضاً موجود لصالح الإنسان : فالحيوانات المستأنسة موجودة لتأمين غذائه ، أما الحيوانات البرية فهى موجودة من أجل كسائه ، أو لكى يستخدمها كأدوات متنوعة ، فإذا كانت الطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً ولا شيئاً ناقصاً ، فلابد أن نستدل من ذلك أنها أوجدت كل شئ لصالح الإنسان »(٢) ، واذن فجميع الموجودات فى خدمة الإنسان ؛ لأنه أعلاها ، إنه يتربع على قمة التسلسل الهرمى للموجودات ، أو هو أعلى موجود تحت فلك القمر فى هيراركية الكون ! .

لكن إذا كانت هناك هيراركية فى الكون ، وإذا كان ما ينطبق على الموجودات المادية ينطبق على الموجودات البشرية ـ فلابد أن يكون هناك هيراركية اجتماعية أيضا ، أعنى داخل عالم الإنسان نفسه ، أى أن تكون هناك درجات ومراتب من البشر يعلو بعضها بعضاً ، على نحو ما هو قائم فى الكون تماماً ، فهناك هيراركية بين الشعوب ، ذلك لأن الطبيعة تميل إلى إيجاد مثل هذاالتمايز بين البشر بأن تجعل بعضهم قليل الذكاء ، أقوياء البنية ، وبعضهم أكفاء للحياة السياسية ، وعلى ذلك فمِنْ الناس مَنْ هم أحرار بالطبع ، ومنهم مَنْ هم عبيد بالطبع : « فشعوب الشمال الجليدى ، وأوربا ، شجعان(٣) ، لهذا لا يكدر عليهم

---

(١) Aristotle: politics, 1333-A (The Complete Works vol . i p. 2115) .

(٢) Ibid: 1265-A (vol 2 p.1993).

(٣) قارن مايقوله عن الكلت Celts فى الأخلاق النيقوماخية من أنهم لا يخشون شيئاً قط، لا الزلازل ، ولا أمواج البحر (Ethics: 1115-B (vol 2 p. 1761 .

أحد صفوة حريتهم ، ولكنهم عاطلون عن الذكاء والمهارة ، والأنظمة السياسية الجيدة ، لهذا نراهم عاجزين عن التسلط على جيرانهم ! أما الشرقيّون فيمتازون بالذكاء والمهارة ، ولكنهم خِلْـوّ من الشجاعة ، ولهذا نراهم مغلوبين على أمرهم ، مستعبدين إلى الأبد ، وأما الشعب اليونانى فيجمع بين الميزتين : الشجاعة والذكاء ، كما أن بلده متوسط الموقع ، ولهذا نراه يحتفظ بالحرية ، ولو اتيحت له الوحدة لتسـلط على الجميع[1] ، وإذن فاليونانى سيد حر ، والأجنبى (البربرى) عبد له ، ولا يستعبد اليونانى أخاه بحال ، وهذه هى فكرة الشعب المختار ، ظنها أرسطو أوليـة كليـة ضرورية ، ولم يستطع أن يسمو فوق عرف عصره ... [2] .

هناك إذن هيراركية بين الشعوب ، أعنى داخل الجنس البشرى نفسه ، فمنها ما هو أعلى (كالأغريق) ومنها ما هو أدنى (كالبرابرة) الذين هم غير اليونانيين بصفة عامة ، ولهذا نجد أرسطو يكتب للإسكندر الأكبر عندما غزا الشرق[3] رسالة ينصحه فيها أن يفرق فى معاملته بين اليونانيين والبرابرة « عامل اليونانيين بوصفك قائداً لهم ، وعامل البرابرة بوصفك سيداً عليهم ، لأن البرابرة يخضعون بالطبيعة للإغريق[4] .. » ، لأنهم الشـعب الذى يجمع كما سبق أن رأينا بين ميزات الجنسين : الذكاء والشجاعة أو المهارة والروح العالية ، وهى صفات جعلته حراً على الدوام ، ومكنته من تطوير نظام سياسى ممتاز ، وجعلته قادراً على حكم الشعوب الأخرى لو أنه حقق وحدته السياسية ، إلا أن نفس هذه الفروق الموجودة بين اليونانيين وغيرهم من الشعوب موجودة داخل الشعب اليونانى نفسه![5] فإذا كان هناك مَنْ يظن أن الناس سواسية[6] ، وأنه يتساوى فى ذلك رجل الدولة والملك ،

---

(١) Aristotle: Politics: 1397-A (vol2 P. 2186).

(٢) يوسف كرم « تاريخ الفلسفة اليونانية » ص٢٠٢ ـ ٢٠٣ دارالقلم بيروت عام ١٩٧٧ .

(٣) « كان الاسكندر أدرك من قبل أن أرسطو ليس مصيباً فى هذا الشأن ،فقد بهرته الحضارة الخالدة التى كانت عليها مصر وبابل ! كما كان قد رأى أشراف الفرس وهم يخوضون المعركة ، فأدرك أن البرابرة مثلهم مثل اليونانيين لابد من تقسيمهم إلى مراتب ودرجات ، بحسب جدارتهم واستحقاقهم ، وأن خيارهم بلغوا منزلة عالية » و . و . تاون فى كتابه « الاسكندر الأكبر : قصته وتاريخه » ص ٩٨ ترجمة زكى على ، ومراجعة د. محمد سليم سالم ، مركز كتب الشرق الأوسط ١٩٦٣ .

(٤) The Politics of Aristotle Eng . Trans by E. Barker P. 385.

(٥) Aristotle: Politics 1397-B (vol . 2 P. 2107) .

(٦) يعتقد أرسطو أن هذه هى نظرة أفلاطون .

ورب المنزل ، والسيد والعبد ، والمرأة والرجل ، فهم فى ذلك واهمون ! ذلك لأنه يتصور أن كلاً من هؤلاء الأشخاص يختلف عن الآخر لا فى النوع ، وإنما فى عدد الأشخاص الذين يتعامل معهم ، فإذا تعامل مع شخص واحد أو قلّة من الأفراد فهو سيد ، أما مَنّ يتعامل مع عدد أكبر فهو رب أسرة ، أما الذى يتعامل مع عدد غفير من الناس فهو سياسى أو رجل دولة أو ملك ـ وتلك نظرية لا يمكن أن تكون صحيحة، إذ أن بين هؤلاء الأشـخاص فروقًا جوهرية ...[١] .

وهكذا يعلن أرسطو منذ البداية ، بصراحة ووضوح ، أن هناك هيراركية اجتماعية وسياسية داخل المجتمع اليونانى نفسه ، فقد أقامت الطبيعة تعارضاً فى كل مكان بين الأعلى والأدنى ، بين النفس والبدن ، بين العقل والشهوة ، بين الانسان والحيوان ، بين الذكر والأنثى ... وحيثما وجد هذا الاختلاف بين موجودين ، فإن ذلك يكون لمصلحتيهما معاً ، أن يحكم أحدهما ، ويطيع الآخر . وتتجه الطبيعة إلى إقامة مثل هذه التفرقة بين البشر فتجعل أحدها أقوى وأقدر على العمل ، والآخر أصلح للحياة السياسية ، ومن هناكان بعض الناس بالطبيعة أحراراً وبعضهم عبيداً ...[٢] .

ومن الأهمية أن نتذكر دائما أن « مبدأ اللامساواة » هذا ، أو مبدأ الأدنى والأعلى ، أو الحاكم والمحكوم ، ليس من اختراع البشر ، وإنما هومبدأ طبيعى ، ولذلك فأنت تجده مسيطراً بين الموجودات جميعاً ، فالموجودات الجامدة هى الأدنى ، ولهذا تسيطر عليها وتحكمها الكائنات الحية ، ولهذا كانت هى الأولى فى سُلّم الطبيعة المساعدة ؛ لأنها تتألف من عنصرين هما : « النفس ، والجسد » الأول هو ـ بطبيعته حاكم ، والثانى ـ هو بطبيعته محكوم[٣] ، حتى بين هذه الموجودات الطبيعية جامدة وحية ، عضوية وغيرعضوية، يمكن أن نلاحظ فيما « يشبه اليقين » وجود سلطة حاكمةمن النوع الذى يمارسه السيد على عبيده ، ومن النوع الذى يمارسه رجل السياسة على المواطنين فى آن واحد : فالنفس تحكم الجسد بالسلطة التى للسيد ، والعقل يحكم الشهوة بسلطة السياسى أو الملك[٤] ، وفى هذا المجال يُبرز أرسطو « مبدأ اللامساواة » بوصفه مبدأ نافعاً ومفيداً ، « فمن المفيد

(١) Aristotle: Politics 1252-A (vol . P. 1986).

(٢) D . Ross: Aristotle P. 241 .

(٣) Aristotle: Politics, 1254-A (vol 2 P. 1990).

(٤) Ibid .

للجسد أن تتحكم فيه النفس ، وكذلك من الطبيعي والمفيد للجانب الانفعالى فى النفس أن يتحكم فيه الجانب العقلى ، فى حين أن مبدأ المساواة أو علاقتهاالعكسية (أى أن يحكم الأدنى) يعود عليهما معاً بالضرر بصفة مستمرة ... .

ويصدق المبدأ نفسه على علاقة الإنسان بالحيوان ، كما يصدق على علاقة النفس بالجسد ، فالحيوانات الأليفة هى بطبيعتها أفضل من الحيوانات البرية ، ومن الأفضل لهذه الحيوانات جميعاً أن يحكمها الإنسان ؛ لأنها فى هذه الحالة تحصل على منافع البقاء . ومن ناحية أخرى فإن علاقةالذكر بالأنثى هى بالطبيعة علاقة سيطرة الأسمى والمتفوق على الأدنى والمنحط ، سيطرة كاملة على المحكوم ، وهذا المبدأ العام يصلح لجميع الموجودات بصفة عامة[١] .

وإذا كانت فكرة هيراركية الكون تفيد فى إلقاء الضوء على المرأة ، ففى استطاعتنا أن نقول : إن بقية الأفكار فى ميتافيزيقا أرسطو تفعل ذلك : « إذ الواقع أن المفاهيم الفلسفية الأرسطية عن الحركة والمتحرك ، أو الوجود بالقوة ، أو الوجود بالفعل ، مثلها مثل فكرة الهيولى والصورة ، وفكرة الوظيفة ، قد استخدمها أرسطو كلها فى التمييز بين الذكر والأنثى ، ونظريته فى الاختلاف بين الجنسين مغزولة بطريقة تجعلها متسقة مع نسيج فلسفته ، وليس من اليسير فصلها عن بقية المذهب[٢] ، لكنا سوف نكتفى بعرض فكرتين أساسيتين تخدمان ما نريد أن ننتهى إليه وهما : فكرة الوظيفة ، وفكرة الهيولى والصورة .

* * *

---

(١) Ibid.

(٢) John H . Randall: Aristotle P. 220.

وأيضاً اكتشاف الواقع Discaring of Reality مقال ليندا لانج « المرأة ليست حيواناً عاقلاً »
Lynda Lange " Woman is not a Rational Animal " .

ثانياً : فكرة الوظيفة :

يقول أرسطو فى بداية كتاب « السياسة » وهو يحدد تعريف الأشياء : « كل شئ يستمد تعريفه من وظيفته ، وقدرته على تأديتها ، وينتج عن ذلك أنه ما لم تكن الأشياء قادرة على تأدية وظيفتها ، فلا ينبغى علينا أن نقول أنها لاتزال هى نفسها الأشياء ، حتى وإن كانت لا تزال تحمل الأسماء ذاتها ... »(١) . فلكل موجود فى هذه الدنيا وظيفة يؤديها ويستمد خاصيته الجوهرية من تأديته لهذه الوظيفة : الفأس وظيفتها التقطيع ، والعين وظيفتها الإبصار ، واليد مهمتها الأخذ والعطاء ، وصانع الأحذية وظيفته صنع الأحذية ، والطبيب مهمته معالجة المرضى .... إلخ ، لكل موجود وظيفة خاصة يقوم بها ، ونحن نقول إنه طبيب ماهر ، وفأس جيدة ، أو حسنة.. إلخ إذا ما قام بوظيفته خير قيام ، فالعازف الجيد هو الذى يعزف على آلته الموسيقية بمهارة ، والمثّال الماهر هو الذى يجيد صناعة التماثيل . وتتصف الفأس بالجودة إذاكانت تقطع على نحو فعال ، والعيون تكون سليمة أو جيدة إذا أبصرت جيداً ... وهكذا فى بقية الأشياء ؛ فلكل شئ وظيفته التى يؤديها ، وهوقد يحسن القيام بها أو يسئ ، لكن إذا كان الأمركذلك فهل يمكن أن تكون هناك وظيفة خاصة للإنسان بما هو إنسان (لا من حيث هو طبيب أو نجار أو مثّال بل من حيث هو إنسان فحسب)..؟ هل يمكن أن تكون هناك وظيفة للإنسان يمكن أن يؤديها بوصفه إنساناً فحسب ؟ إذا ما قام بتأديتها من ناحية أخرى يكون قد قام بعمل خاص كإنسان ؟ للإجابة على هذا السؤال علينا أن نحلل جوانب الإنسان المختلفة لنرى أيها أقدر من غيرها على تمييزه كإنسان.

هناك جانب فى تكوين الإنسان يمكن أن نطلق عليه اسم « النشاط الحر » ، وهو الجانب الذى تتمثل فيه الحياة ، مجرد الحياة فحسب ، كما تبدو فى عمليات التنفس والتغذية ، والهضم والإخراج ... إلخ ، لكن هذه الحياة ليست خاصة بالإنسان ، لأن النبات والحيوان يشتركان معه فيها ، فإذا ما قام الإنسان بهذا النشاط الحى ، فإن ذلك لا يعنى أنه قام بوظيفة خاصة به هو(٢) .

وهناك جانب آخر فى الإنسان يتمثل فى الإحساس أو الحواس المختلفة : كالسمع

---

(١) Aristotle: Politics, 1253-A (vol . 2 P. 1988).

(٢) إمام عبد الفتاح إمام « فلسفة الأخلاق » ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

والبصر والتذوق ، والشم ... إلخ ، وهى خصائص لا توجد فى النبات ، ولكنها مع ذلك ليست جوانب إنسانية خالصة ؛ لأن الحصان والثور وغيرها من أنواع الحيوانات تشارك فى هذا الجانب ، وقيامه بهذه الوظيفة لا يعنى أنه يقوم بشئ خاص به هو .

وهناك جانب ثالث وأخير يتمثل فى النشاط العقلى أو الحياة العقلية بصفة عامة ، وهو جانب يتميز به الإنسان حقاً ، فلا يشترك مع النبات ولا الحيوان بحيث نستطيع أن نقول : إنه لو أدى أى إنسان هذا الجانب على أحسن وجه يكون قد قام بوظيفته خير قيام ، وبالتالى يكون هو الإنسان فى سموه ، لأن حيازة الإنسان للعقل لا تتجلى فى قدرته على التفكير فحسب ، بل تتجلى أيضاً فى قدرته على التحكم بعقله ومبادئه العقلية فى رغباته وسلوكه ، وعلى ذلك لا تكون فضائل الإنسان عقلية فحسب ، بل أخلاقية أيضاً .

ويذهب أرسطو فى بداية « الأخلاق النيقوماخية » إلى أن السعادة هى الغاية النهائية لنشاط الإنسان ، ثم يشرع فى بيان ما هى هذه السعادة « ربما أمكن تعريفها لو أننا حددنا أولاً وظيفة الإنسان » (الأخلاق ١٠٩٧ ب ـ المجلد الثانى ص ١٧٣٥) ومما له مغزى أن نجد هنا أنه على خلاف الموجودات الأخرى ذات الدرجات الدنيا فى سلم الموجودات ، فإن الوظيفة الخاصة التى تناسب الإنسان ليست تحقيق غرض يخدم به موجوداً أعلى ، فعلى حين أن الإنسان يشارك الحيوانات الدنيا فى بعض الخصائص : كالتغذية ، والنمو ، والاحساس فإنه يتميز عنها بالعقل ، ومادامت هذه هى السمة المميزة ، فإن الخير الأقصى للإنسان هو الحياة النشطة للمبدأ العقلى عنده (الأخلاق ١٠٩٨ـ أ المجلد الثانى ص ١٧٣٥) فعلاقة الإنسان بالموجودات الموجودة فوق سُلّم الهيراركية ليست علاقة من أجل أن يقوم الإنسان بخدمة هذه الكائنات لتحقيق غرض معين ، فعلى الرغم من أن قدرته العقلية تجعله شبيهاً بالآلهة التى تصرف حياتها كلها فى التأمل العقلى ، فإنه يحاكى الآلهة من أجل تحقيق غرضه هو لا غرضها، فهدفه هو تحقيق سعادته ، لا تحقيق حاجات الآخرين[١] .

والكلمة اليونانية التى يستخدمها أرسطو طوال حياته عن الإنسان من حيث طبيعته ووظيفته هى « Anthropos » وهى كلمة يونانية تعنى « الموجود البشرى » ، لكن سرعان ما يتضح لنا أن قلة ضئيلة للغاية من نوع واحد من الجنس البشرـ هى التى يعنيها أرسطو

---

(١). Susan M. Okin op. cit P. 77

بهذا اللفظ ، وهى « الرجل اليونانى الحر » ، لهذا كانت فئة قليلة هى التى تشارك فيما يسميه بالفضائل البشرية، لأن الفضائل فى الواقع ليست واحدة ، لأن الانسان ليس واحداً بل هناك هيراركية فى الفضائل تقابل هيراركية البشر التى رتّبها أرسطو على غرار البنية الاجتماعية القائمة فى المجتمع اليونانى(١) .

هذه القّلة هى « خلاصة البشر » ، وهى قمة الإنسان ، ووظيفتها هى التأمل العقلى الخالص ، أو التشبه بالآلهة ، وهؤلاء يحتاجون إلى ثروة وأصدقاء ، ووقت فراغ، ونبالة فى المولد . ومن الواضح أن بعض هذه الأمور تحتاج إلى خدمة الآخرين ، ومن هنا فإن أرسطو يرى ــ طبقاً لمبدأ الغائية ــ أن الغالبية العظمى من البشر ، وليس مملكة الحيوان فحسب ، تتجه بطبيعتها ، إلى أن تكون أدوات تمد القلّة بالضرورات والراحة التى تمكّنها من أن تقوم بوظيفتها وهى سعيدة، فتمارس نشاطها التأملى ، وهكذا نجد أن النساء والعبيد ، والحرفيين والتجار ... ومن هم على شاكلتهم ليسوا سوى آلات إضافية تساعد « الإنسان » ــ بالمعنى الضيق جداً للكلمة ــ على القيام بوظيفته خير قيام ، لتحقيق سعادته القصوى .

وهكذا تتضح فكرة « الوظيفة » عند أرسطو شيئاً فشيئاً ، كما تظهر بوضوح العلاقات بين أولئك الذين يتصور أنهم بحكم الطبيعة حكام ومحكومين : كالزوج والزوجة ، السيد والعبد ... إلخ ، وتظهر وظيفة كل منهم ، والدور الذى يتناسب مع كل فرد وقدراته وإمكاناته التى تختلف أتم الاختلاف عن غيره من الأفراد : « ويشكل هذا الضرب من الاستدلال جانباً جوهرياً فى حجته عن الرق » فعلى الرغم من أن الرقيق يوصف بأنه آلة ، أو أداة حية فإن أرسطو يعتقد أن هذا الوضع للرقيق مفيد وعادل تماماً ، سواء بالنسبة له ، أو بالنسبة لسيده ، فالعلاقة بينهما تستهدف فى أساسها المحافظة عليهما ، إذ أن منفعتهما واحدة ومصلحتهما مشتركة (السياسة ١٢٥٥ ــ أ ، ب)(٢) ، والواقع أننا لو سرنا قليلاً مع أرسطو لوجدنا أن الفائدة تعود بالدرجة الأولى على الموجود الأعلى . ولهذا نراه يقول : إنّ العلاقة بين السيد والعبد هى من حيث الجوهر منفعة للسيد ، ومن حيث العرض منفعة للعبد ... الذى ينبغى أن نحافظ على وجوده إذا أردنا لسيطرة السيد أن تبقى » (السياسة ١٢٧٨ ــ ب) . وعلى هذا النحو يتحدث أرسطو باستمرار عن كل زوج « من هذه العلاقة

(١) Lynda Lange op. cit P. 12.
(٢) Susan Okin op. cit P. 78.

التى يرى أن الخير فيها لا يمكن أن ينقسم بين الطرفين ؛ ذلك لأن الخير ينتمى إلى الوجود الأعلى ، أو ما من أجله وجد الآخر - وفى سياق حديث صريح عن النساء وسيطرة الرجال على النساء يقول : « يمكن أن نشبه المحكوم بصانع الناى ، والحاكم بالعازف الذى يستعمل الناى » (السياسة ١٢٧٧ - ب) .

والخطير فى الأمر أن أرسطو يعتبر ذلك أمراً طبيعياً ، فالطبيعة - التى لا تفعل شيئاً باطلاً أو عبثاً - هى التى رتّبت الموجودات على هذا النحو ، وهى التى حدّدت لكل موجود وظيفته التى يخدم بها الموجود الأعلى ، وهكذا كان النساء « بالطبيعة » أدنى من الرجال ، وكانت وظيفتهم خدمة الرجال ، ولهذا كان من الطبيعى أن يحكمهن الرجال ، وكل هذه « الوظائف » ، والأوضاع ، والمراتب » بالطبيعة لا بالعرف ، ولا بالعادات ، ولا بالتقاليد ، ومن هنا كانت معارضته العنيفة للسوفسطائية التى ذهبت إلى أن جميع هذه الأوضاع الاجتماعية ، ومعها القيم الأخلاقية ، وليدة العرف والعادات . بل إن هذه الأوضاع عند أرسطو ، حتى لو كانت ناتجة من العادة فإنها مع تكرارها تتحول إلى طبيعة[1] ... فإذا ما اضطررنا اضطراراً إلى اكتساب العادات الطبيعية ، فسيجئ يوم فى رأى أرسطو ، يصبح فيه أداؤنا للأفعال الخيِّرة مصدراً لمتعتنا ، وذلك يذكرنا بما يقوله هاملت مخاطباً أمه:

« ادعَّى الفضيلة إنْ كنت منها عاطلة ، فالعادة مارد جبار يلتهم العقل التهاماً ... » !!

ولهذا فإننا نجد أرسطو نفسه يقول : « الأمر كذلك بالنسبة للعادات ، لأن ماصار عادة يصير طبيعياً بوجه ما ، والواقع أن العادة شئ شبيه بالطبيعة ، لأن المسافة « غالبا ، ودائما » ليست كبيرة ، والطبيعة تنسب إلى فكرة « دائماً » ، والعادة إلى فكرة « غالباً » ... (١٣٧٠ - ٣) [2] .

وهكذا ينتقل أرسطو بحرية تامة من العادات والتقاليد القائمة فى مجتمعه إلى ماهو فطرى ، وطبيعى ، ومضاد للخصائص المكتسبة (قارن: الأخلاق ١١٠٣ - أ) .

---

(١) برتراندراسل « تاريخ الفلسفة الغربية » الجزء الأول ص ٢٦٤ ترجمةد. زكى نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٧٨ (ط ٣) .

(٢) أرسطو« الخطابة » ص ٧٥ ترجمة د. عبد الرحمن بدوى - دارالشئون الثقافية العامة - بغداد ، عام ١٩٨٦ .

ثالثاً : الهيولى .. والصورة :

كل شئ فى هذه الدنيا يتألف عند أرسطو من مادة وصورة ، ولا نعنى بالمادة ما يُفهم عادة من هذا اللفظ : هذا الخشب أو النحاس أو الحجر .. إلخ ، فهذه الموجودات نفسها تتألف من مادة وصورة ، وإنما نعنى بالمادة « الهيولى » ، أو « العجينة » ، أو المادة الخام التى يمكن أن تتشكل فى قالب خاص ، هو الصورة ، وهذه العجينة هى التى يسميها أرسطو « الهيولى Hyle » هذا الشئ المسمى بالخشب يمكن أن يكون سبورة ، أومنضدة أو رفا للكتب ...إلخ ، وتلك هى الصورة Form (Eidos)(١) .

ومن الواضح هنا أن الصورة هى الأكثر أهمية ؛ لأنها العنصر الجوهرى أو الماهوى الذى يحدد ماهية الشئ ويجعله يختلف عن سواه ، وأنها هى التى تحدد « جوهر » الموجود، فالخشب فى الأمثلة السابقة كان واحداً ، وهو هو نفسه ـ أمّا ما يجعل الموجودات تختلف وتتنوع ، فهى الصورة ، إذا ما تغيّرت تغيّر الموجود . أما المادة أو الهيولى فلا قيمة لها إلى جانب الصورة ، خذ مثلاً المنضدة ، تجد أن باستطاعتك أن تغير فى مادتها كما تشاء فتجعلها منضدة من نحاس ، أو خشب ، أو زجاج ، أو رخام ... إلخ ، ومع ذلك تظل المنضدة كما هى أعنى « منضدة » ؛ لأن الصورة ظلت فى جميع الحالات واحدة ، لكن افعل العكس أعنى غيّر الصورة مع بقاء المادة تجد نفسك أمام شيئين مختلفين ، حتى ولو كانت الهيولى واحدة هى الخشب مثلاً فهذه منضدة ، وهذا باب ، أو نافذة ، أو مقعد وكلها من خشب أو مادة واحدة لكنها أشياء مختلفة لاختلاف الصورة .

الصورة هى الأهم ، وهى الجوهر الأساسى والماهية ، وهى العنصر العقلى فى مقابل العنصر المادى الذى هو الهيولى ، وإذا استرجعنا عبارة أرسطو السابقة : « إن ما هو أعلى فى سلّم الموجودات ـ إنما يكون كذلك بسبب ما فيه من مبدأ » استطعنا الآن أن نقول : إن الموجود يعلو فى سلّم الموجودات بمقدار ما تعلو فيه الصورة على الهيولى ، أما إذا حدث العكس ، وطغت المادة على الصورة ، هبط الموجود إلى أسفل السلّم ، فهذه القطعة الصماء من الحجر فيها المادة واضحة وغالبة ، فى حين أن الصورة مطموسة فهى لا شكل لها ، أو قل : إنها قابلة لأن تتشكل فى أية « صورة » ، أو فى مجموعة منوعة من الصورة ، فيمكن أن تكون تمثالاً فى يد النحات ، أو تقطع إلى أجزاء صغيرة لتكون لبنات فى بناء جدار ، أو جزء من جسر ، أو جانب من رصيف ... وهكذا . وهى لهذا السبب توضع من

(١) J. H. Randall, Aristotle, P.118 .

حيث الترتيب فى أسفل الموجودات ، وقل مثل ذلك فى بقية الأشياء الجامدة التى تطمس فيها الصورة فيختفى المبدأ العقلى .

ولو أنك ارتفعت درجة لوجدت الصورة أكثر وضوحاً فى مملكة النبات ، فنحن هنا نصل إلى الكائنات الحية ، صحيح أنها موجودات طبيعية أيضاً ، لكنها تمتاز بالحياة : « ونعنى بالحياة : أن يتغذى الكائن ، وينمو ، ويفكر بذاته ... »[1] ، والنفس هى التى تقوم بهذه العمليات المختلفة ، والنفس جوهر ، بمعنى أنها صورة الجسم الطبيعى فى هذه الحالة، ويسميها أرسطو « بالنفس الغازية » يقول : « هى أول قوى النفس وأعمها ، وبها توجد الحياة لجميع الكائنات ، ولها وظيفتان : التوليد ، والتغذى ... » وهكذا يكون النبات فى مرتبة أعلى من الموجودات الجامدة أو غير الحية .

ولو ارتفعنا مرة أخرى لوصلنا إلى مملكة الحيوان ، حيث توجد النفس الغازية ، مادامت هى التى تجلب الحياة للكائن الحى ، بالإضافة إلى النفس الحاسة ، لأن الحيوان لا يتغذى ويتناسل فقط ، بل يبصر ويشم ، ويتذوق ... إلخ ، أى يستخدم حواسه ، فضلاً عن أنه يتحرك ، وهى خصائص يتميز بها عن النبات لوجود النفس الحاسة عنده .

وعلى قمة البناء الهرمى عند أرسطو يتربع الإنسان فى عالم الطبيعة ، أو عالم ما تحت فلك القمر ـ الذى تتجلى فيه الصـــورة بوضوح كامل ـ لوجود العقل » أو « النفس العاقلة » ، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذى هوموجود عاقل ، ذلك لأن المبدأ العقلى هو الذى يميزه عن غيره من الموجودات ، فهو على الرغم من مشاركته فى النفس الغازية الخاصة بالنبات ، والنفس الحاسة الخاصة بالحيوان ، فإنه ينفرد عن سائر الموجودات بخاصية النفس العاقلة[2] .

ومن هنا جاز لنا أن نقول : إنه الموجود الأعلى فى الطبيعة ـ لحيازته على أعلى صورة ـ وأن بقية الموجودات إنما وجدت لخدمته : « فالطبيعة أوجدت كل شئ لصالح الإنسان » كما سبق أن ذكرنا ، وهكذا نتّبين بوضوح مدى تغلغل الهيراركية فى ميتافيزيقا أرسطو ، وارتباطها الوثيق بفكرة الهيولى والصورة[3] .

---

(١) Aristotle, De Anima, 412 (vol . I. P656).

(٢) Ibid, 415 (vol . I. P661).

(٣) لا أستطيع أن أمنع نفسى من ملاحظة الأثر الغامر الذى كان لهذه الفكرة الأرسطية ، على فكر هيجل الذى رتّب الموجودات ، بل الحضارات والفنون والثقافة والديانات ... إلخ ، « ترتيبا تصاعدياً » من حيث العلاقة بين « الروح والمادة » . الحضارات الشرقية كانت المادة طاغية ! وكانت الروح فى حالة « نعاس» وهى تحاول أن تنفصل عن المادة فى مصر القديمة ، وهو ما يرمـز إليـه تمثال أبى الهـول نصفه إنســان (روح) ونصفه حيوان (مادة) ـ الذى قتله أوديب على أبواب طيبة فى الأسطورة الشهيرة فتخلصت الروح من المادة عند اليونان .. إلخ .

البــاب الثـــانى

التطبيقات العمليـــة

الفصل الأول

« الأنثى ... والبيولوجيا »

« إذا كان أبو قراط جديراً إلى حد ما أن يكون أباً للطب ، فالأجدر أن يكون أرسطو أباً لعلم الحياة » .

چورج سارتون ، تاريخ العلم ، جـ ٣ ص ٢٧٧

« كان لآراء أرسطو فى البيولوجيا تأثير هائل فى القرون التالية ، وهى آراء بناها على التفكير النظرى ، أكثر مما أقامها على التجربة » .

سيمون دى بوفوار ـ ، الشيخوخة ، ص ٢١ ـ ٢٢

Simone de Beauvoir: Old Age P. 21-22 .

أولاً : اهتمام أرسطو بالبيولوچيا :

من الطبيعي أن يهتم أرسطو بالبيولوجيا ، وأن يبحث فيها عن تطبيقات عملية لآرائه النظرية في الوظيفة ، والهيراركية ، والصورة والهيولي ... إلخ ، مما يدعم نظريته عن المرأة . فقد كان أبوه « نيقوماخوس » من أسرة توارثت الاشتغال بالطب ، وكان هو نفسه طبيباً للملك أمينتاس الثاني Amyntas II جدّ الإسكندر [(١)] . والنظرة السريعة على مؤلفات المعلم الأول تكشف عن مدى اهتمامه «بالبيولوجيا » حتى صارت من أهم ميادين بحوثه الرئيسية ، صحيح أننا نستطيع القول إنه كان دائرة معارف كبرى في جميع ألوان المعرفة العلمية ، والطبيعية ، والفلكية ، والرياضية في عصره ـ فضلاً عن العلوم الفلسفية بالطبع (وهذا هو السبب في تسميته بالمعلم الأول) ـ لكنه كان رائداً في ميدان البيولوجيا[(٢)] . سواء بالنسبة لقوة ملاحظاته ، أو للشواهد التي جمعها من ملاحظات الآخرين ، أو لمناقشاته النظرية « فقد كان أرسطو أعظم علماء الحياة بين القدماء بلا منازع » فيما يقول ديفيدروس D. Ross [(٣)] . حتى أن أعظم علماء البيولوجيا المحدثين « تشارلز داروُن » يقول عنه : « لقد كان لينيس Linnaeus ، وكوفييه Cuvier معبوديَّ على اختلاف في طريقة العبادة . لكني أراهما الآن ـ إذا قيسا إلى أرسطو العجوز ـ مجرد تلميذين[(٤)] .

ومن هنا تأتي خطورة آراء أرسطو البيولوجية التي سيطرت على الفكر البشري فترة زمنية ربما كانت أطول من الفترة التي ساد فيها منطقه الصوري ! . فقد استمر عملاقاً ومؤثراً حتى القرن الماضي ، رغم ما في هذه الآراء من أخطاء : « وقصارى القول أن كتاب تاريخ الحيوان لأرسطو هو خير مؤلفاته على الإطلاق ، وهو أعظم ما أثمره العلم في بلاد اليونان في القرن الرابع ق.م. ولقد لبث علم الأحياء عشرين قرناً ينتظر مؤلفاً يضارعه »[(٥)] لقد ذكر

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم « جـ ٣ ص ١٥٢ » (دار المعارف) .

(٢)قارن أيضاً ما يقوله ول ديورانت : « أما علم الأحياء فهو ميدان أرسطو ، فهوواسع الملاحظة ، عظيم الاطلاع ، وفيه أيضا يرتكب أكثر الأغلاط » قصة الحضارة مجلد ٧ ص ٤٩٩ .

(٣) W.D. Ross : Aristotle, P. 12 Meridian Book, N.Y.1959 .

(٤) « داروِن : حياته ورسائله » ـ نقلا عن كتاب روس السابق ص ١٢ . وقد ذكر العبارة نفسها جورج سارتون في « تاريخ العلم » جـ ٣ص ٢٧٧ . أما العالمان فهما كارلوس لينيس (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨) عالم نبات سويدى يعدّ مؤسس علم النبات . أما البارون كوفييه (١٧٦٩ ـ ١٨٣٢) فهو عالم فرنسى يعدّ مؤسس علم التشريح المقارن .

(٥) ول ديوارنت « قصة الحضارة » مجلد ٧ ص ٥٠٤ .

أرسطو فى هذا الكتاب ما يقرب من ٥٠٠ حيوان مختلف ، وقد لا يكون هذا العدد ضخماً بالنسبة إلينا الآن ، لكنه كان هائلاً بالنسبة لعصره . فقد تعلّم التشريح عن والده ، وقام هو نفسه بتشريح أكثر من خمسين حيواناً ، لكنه على الأرجح لم يشرح جسداً بشرياً قط . « وربما يكون قد شرّح جنيناً بشرياً » لكنه لم يأخذ عنه معلومات مباشرة[1]. فقد كان يأخذ معلوماته من مصادر كثيرة ومنوعة : منها ملاحظات الآخرين ، ومن الرعاة ، والصيادين ، وقناصى الطيور ، وصيادى السمك فى بحر إيجه . ولهذا لم تكن مؤلفاته البيولوجية الثلاثة التى تتحدث عن « تاريخ الحيوان » ـ وهى « أجزاء الحيوان » ، و « طباع الحيوان » ، « وتوالد الحيوان »[2]ـ على درجة واحدة من القيمة ، فبعضها إشارات عامة ، بغير شرح أو تفصيل ، وبعضها الآخر روايات لقصص رواها رحالة[3] . إذ يروى أن الإسكندر الأكبر أصدر أوامره لصياديه ، وحارسى صيده ، وصائدى السمك ، وغيرهم ألا يمنعوا عن أرسطو أى نوع يطلبه منها ، وأن يمدوه بما يريده من المعلومات[4]. ويهمنا هنا أن ننتبه إلى نقطتين أساسيتين :

الأولى : أن البداية هى المبادئ التى يحددها العقل كما ذكرنا ، فها هنا نجد أرسطو يبحث عن المادة والصورة ، والهيراركية التى تحدثنا عنها واضحة جداً ، فهو يبدأ بالتفرقة بين الموجودات الحية ، وغير الحية أو الجمادات . وقد سبق أن ذكرنا أن الثانية فى خدمة الأولى ، أعنى أن الجمادات تخدم الحياة بصفة عامة ، لكنه هنا يفرق داخل مملكة الحياة بين الكائنات الحية نفسها ، فهى مرتبة منذ البداية بطريقة تصاعدية : النبات أولا ، ثم يعلوه الحيوان ، وفوقه الإنسان . ومعيار التفرقة بينها بحيث توضع فى مرتبة أدنى أو أعلى فى سلّم الكائنات الحية ـ هو **كمية الحرارة الموجودة** فى الكائن الحى ، فأدنى الكائنات الحية مرتبة هى أقلها فى درجة الحرارة .ولهذا نراه يقول : « إنه من خلال سلّم الحيوان كله نجد

---

(١) ولهذا السبب فقد كان أرسطو يعرف عن الأعضاء الداخلية للحيوان أكثر مما يعرفه عن الإنسان . ويلوح أنه لا هو ، ولا أبقراط ، قد تحرر من سلطان الدين ، فأقدم على تشريح الأجسام البشرية . ول ديورانت مجلد ٧ ص ٥٠٣ .

(٢) كان لهذه المؤلفات تأثير قوى على التراث العربى ولاسيما عند الجاحظ ، وابن قتيبة والنويرى فى « نهاية الإرب » والدميرى فى « حياة الحيوان » ... إلخ . انظر مثلا منقولات الجاحظ عن أرسطو فى كتابه « الحيوان » . نصوص ودراسة بقلم د. وديعة طه نجم ، منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٩٨٥ .

(٣) W. D. Ross, Aristotle, p. 112.

(٤) ول ديورانت « قصة الحضارة » مجلد ٧ ص ٤٩٩ .

الاختلافات واضحة ومتدرجة فى كمية الحرارة » (٥٨٨ ـ ١ ب)[(١)] . والطبيعة تسير شيئاً فشيئاً من الأشياء غير الحية إلى الحياة الحيوانية[(٢)] .

النقطة الثانية : أن المنظور الذى يفهم به أرسطو البيولوجيا هو نفس منظوره الفلسفى فى فهم العالم ، فليس علم الحياة أو غيره من العلوم مجرد مجموعة من الوقائع Facts التى يجمعها الباحث عن طريق المشاهدة أو الملاحظة ثم يقوم بتفسيرها ... إلخ . وإنما العلم الحقيقى (أعنى المعرفة الفلسفية فى نهاية الأمر) أن نقدم المبررات العقلية التى تفسر لنا لِمَ كانت هذه الوقائع على نحو ما هى عليه ، وليست على نحو آخر ، وفى أى ميدان آخر من ميادين المعرفة ، نسعى إلى **الفهم الفلسفى** ، والفهم الفلسفى هو الكشف عن الضرورة العقلية ، الكامنة فى الوقائع [(٣)]. ومعنى ذلك : « أن تفسير الوقائع يعتمد على مجموعة من المبادئ وهى عادة مبادئ ميتافيزيقية . فنقطة البدء فى أى موضوع تتضمن هذه المبادئ التى تشبه اليوم ما نسميه « بالعروض » ونصل إليها عن طريق العقل أو النوس Nous على أن نبيّن أن هذه هى الطريقة الفلسفية الوحيدة التى يمكن أن نفهم بها الواقع ـ فالعقل فيما يقول أرسطو هو الأساس الأول للعلم [(٤)]. وهذه المبادئ الميتافيزيقية هى التى تقودنا فى رأى أرسطو إلى الكشف عن « العلل » التى يمكن أن تكون هى « المقدمات » فى الوقت الذى تكون فيه «الوقائع » التى نلاحظها هى النتائج ـ ذلك لأن مبادئ العلم عند أرسطو تتحدد وفقاً للنظام العقلى للعالم [(٥)].

وهكذا نجدأن البيولوجيا ليست مجرد « وقائع » يستخلص منها أسانيد تدعم النظرية الأرسطية عن المرأة ، وإنما هى ، على العكس ، تطبيق عملى نموذجى لأفكاره الميتافيزيقية: لفكرة الوظيفة ،والهيراركية ، والصورة والمادة ... إلخ كما سنبيّن بعدقليل . فها هنا سنكتشف أن دونية الأنثى ترجع إلى أنها مجرد « **هيولى** » ، فهى لا تقدم فى عملية الإنجاب سوى المادة الخام . فى حين أن الذكر هو الموجود الأعلى ؛ لأنه « **الصورة** » أو « العقل » أو « الروح » التى تبعث الحياة فى هذه المادة الميتة[(٦)]. والمرأة أقل «حرارة »

---

(١) Aristotle : The Complete Works, Vol., I. P. 922

(٢) Idid.

(٣) H. Randall: Aristotle, P. 46

(٤) Idid.

(٥) Lynda Lange : Dis coveringf Reality P.7.

(٦) لابد أن نشير إلى أن أرسطو يستخدم باستمرار كلمة النفس Anima ، لكن ربما كانت كلمة « الروح » هنا أكثر تعبيراً عن المعنى المقصود .

من الرجل ، ولذلك فهى أدنى منه . والمرأة أضعف ، لأن المادة سلبية والصورة ايجابية[1].
وغير ذلك كثير من الأفكار التى تدعم الفكرة الأرسطية عن المرأة ، وتهبط بها إلى مرتبة وسط بين العبد والرجل الحر .

ثانياً : البيولوجيا .. وطبيعة الأنثى:

فكرة الفيلسوف الفرنسى جاستون بشلار (١٨٨٤ ـ ١٩٦٢) Gaston Bachelard التى تقول : إن العالِم لاَ يُقبل على موضوعات بحثه بذهـن خال من الأفكار والآراء ، أى « بنية عقلية فارغة » ، وإنما يدرس الموضوعات العلمية المختلفة ، « وهو مثقل بأفكار جاهزة وآراء مُعدَّة من قبل » ـ هذه الفكرة تكاد لا تصدق على عالم قدرما تصدق على أرسطو ، «عالم البيولوجيا » ! لكن إذا كان « بشلار » يذهب إلى أن « الروح »عندماتقّدم نفسها للثقافة العلمية لا تكون شابة أبداً ، بل هى بالأحرى تكون عجوزاً بلغت من العمر شأواً بعيداً ، فعمرها هو بالضبط عمر ما لديها من أحكام وآراء مبتسرة Préjugées [2]. أى أن هذه الروح مثقلة بآراء مسبقة ـ إذاكان بشلار يقول ذلك ، فإنه يطالب العالم أن يبدأ أولاً بعملية تطهير عقلى Catharsis Intellectuelle لما يعلق بذهنه من أفكار مسيطرة [3].

وهذا ما يذكره فرنسيس بيكون عن أرسطو من أنه كان ينقل فكره المنطقى والميتافزيقى بصفة عامة إلى الطبيعة [4]. ولعل أوضح ميدان تظهر فيه هذه الفكرة بالنسبة لنظريته عن المرأة ، وهو ميدان البيولوجيا الذى يدخله وهو مُسلح بخلفية ميتافيزيقية ترشده وتوجه تفكيره: فهو يبحث فيه عن الصورة والهيولى ، ولما كانت الصورة أرقى ، كما لاحظنا فى الفصل السابق ، فلابد أن تكون هى الرجل ـ بما يترتب على ذلك من تداعيات تظهر فى فصل السياسة القادم ، حيث نجد الرجل أرجح عقلاً فهو الذى يحكم ، والمرأة ناقصة عقل فهى تسمع وتطيع فحسب ! كما نجد أرسطو يبحث هنا ، فى ميدان البيولوجيا ـ عن « الهيراركية » ـ أو مراتب الكائنات الحية ، حيث الأدنى موجود أساساً لخدمة

---

(١) لأنه كان يعتقد : كما أشرنا ، أن كمية الحرارة هى المعيار الذى يرفع الكائن فى سُلّم الوجود ، فان نقصتْ كان موجودا أدنى ـ وهى بالطبع فكرة خاطئة .

(٢) G. Bachelard, La Formation de L'Esprit Scientifique P.18 .

(٣) Idid .

(٤) F. Bacon, The New Organon, P. 45 ed. by Fulton H. Anderson, The Bobbs - Merill Company 1960 .

الأعلى ! كما يبحث عن « الوظيفة » التى يقـوم بها كل عضو ، والعلل الأربع ... إلخ . ولنبدأ من البداية .

لقد رأينا كيف كانت البيولوجيا موضوع اهتمام رئيسى عند أرسطو ، أما نظرته إليها فقد كان يعتقد أنها تدرس موضوعات ثلاثة رئيسية هى :

(١) مشكلة الإنجاب أو التوالد Reproduction or Generation

(٢) مشكلة الإحساس Sensation

(٣) مشكلة الحركة Movement

وتُعدّ المشكلة الأولى بمثابة الأساس للمشكلتين الآخريين ،إذ يمكن أن توجد بذاتها Per se ، فى حين أن الآخرتين لا توجدان إلا بعد وجودها ، ولهذا فإننا سوف نهتم بها بصفة أساسية . ويسوق أرسطو الكثير من الشواهد الهامة ، والملاحظات النافذة ، حول مشكلة الإنجاب ، وهو يرى أن الإنجاب يمكن أن يتم بثلاث طرق :

(أ) الإنجاب أو التولد التلقائى Spontaneous Generation

(ب) الإنجاب عن طريق والد واحد Generation From a Single Parent(١)

(جـ) الإنجاب عن طريق والدين Generation From two parents

وكان المعلم اليونانى فى ذلك العصر يؤمن بالتوالد التلقائى ، بل إن هذه النظرية ظلت مسيطرة على العقـول لقـرون طويلة قبل أن يتم تفنيدها فى القـرن الماضى على يد عـالم الكيمياء الفرنسى لويس باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) نتيجة لتجاربه على البكتريا (٢).

أما الإنجاب من والد واحد فقد كان أرسطو يعتقد أنه يتم فى مملكة النبات ، وفى بعض الحيوانات التى تشبه النبات فى سكونها وعدم حركتها. والواقع أن النظرية الثالثة هى التى سيطرت على اهتـمامه ، وهى فى الوقت ذاته النظرية التى تهـمنا فى موضوعنا الحالى ، وذلك لأنه ناقش فيها بعض المشكلات الهامة ذات الصلة المباشرة بنظريته عن المرأة .

لقـد اهتم أرسطو اهتـمـاماًكبيراً بعملية الإنجـــاب أو التوالـــد ، ورأى أنهـــا العمليـــة « الطبيعية » أكثر من غيرها بالنسبة للكائنات الحية الناضجة أو مكتملة النمو ، وهى وظيفة طبيعية فى هذه الكائنات ، لأنها الوسيلة الوحيـــدة لتحقيـــق الخلود ، ويقول: « أقرب الوظائف إلى الطبيعة لكل كائن حى كامل ليس بناقص ـ ألاّ يكون فيه التوالد

(١) W.D. Ross, Aristotle, p. 117 .

(٢) Ibid .

تلقائياً ، هو أن يخلف وراءه كائناً شبيهاً به : الحيوان حيواناً آخر ، والنبات نباتاً آخر ، بحيث يشارك فى الأزلى والإلهى بحسب طاقته . وهذا هو موضوع النزوع بالنسبة لجميع الكائنات ، وغاية نشاطها الطبيعى . غير أننا سوف نتبيّن بعد قليل أن الذكر هو وحده ، فى الواقع ، الذى يحقق الخلود ، لأنه هو الذى يزّود الجنين بالروح . وها هنا تكون أهمية الأنثى التى يحدد أرسطو دورها بوضوح. فإذا كانت وظيفة العبد تزويد الأسرة بمطالبها ، وحاجاتها اليومية ، فإن الوظيفة الأولى للأنثى هى الإنجاب أو التوالد ، فإذا أردنا أن نفهم وظيفة المرأة كما عرضها أرسطو فى كتاب « السياسة » فهما جيداً كان علينا أن نعود إلى ما كتبه فى البيولوجيا .

وإذا كان أرسطو قد اهتم بعملية الإنجاب أو التوالد التى تجعل الكائن الحى يشارك فى الأزلى أو الإلهى ، ويكتب لنوعه الخلود ، فإنه اهتم داخل هذه العملية بثلاث مشكلات رئيسية هى :

(١) مساهمة الذكر والأنثى فى عملية الإنجاب .

(٢) المساهمة فى تحديد جنس الجنين .

(٣) هل تتم المساهمة باشتراك الجسد كله ، أم بعضو مُعَيَّنٍ فيه فحسب .

وسوف نسوق كلمة سريعة عن كل منها لما لها من أهمية فى إلقاء الضوء على طبيعة الأنثى عند أرسطو .

* * *

ثالثاً : دور الذكر والأنثى :

يقدم أرسطو فى كتابه « توالد الحيوان » تعريفاً للذكر والأنثى على النحو التالى :

« يختلف الذكر فى تعريفه عن الأنثى بما له من ملكات خاصة ، فنحن نعنى بالذكر ذلك الذى ينسل فى الآخر ، ونعنى بالأنثى تلك التى تنسل من داخل ذاتها بحيث يخرج النسل من باطنها ، وهو النسل الذى كان موجوداً فى الناسل من قبل »[1] . ومثل هذا التعريف لا يشير إلى جوانب خاصة بالتشريح فحسب ، وإنما يشير كذلك إلى مراتب أو درجات فى الوجود . فهناك « قدرات أو ملكات خاصة » ، موجودة عند الذكر لكنها غير موجودة عند الأنثى ، ولهذا فسوف يكون لكل منهما دور خاص فى عملية الإنجاب ووظيفة تختلف عن الآخر . ومن هنا سيكون الذكر باستمرار ، وبطرقٍ شتى أرفع قيمة ، وأعلى مقاماً من الأنثى [2]. فلننظر فى مساهمة كل منهما فى الإنجاب على أن يكون فى ذهننا باستمرار المفاتيح الأساسية عند أرسطو التى سبق أن تحدثنا عنها ، والتى تشكل الأساس الميتافيزيقى للنظرية ، كما تشكل الأساس فى بناء الكون بأسره . من ذلك ، مثلاً فكرة المراتب أو التسلسل التصاعدى أو الهيراركية ، كذلك الفكرة التى تقول أنَّ كل شئ فى هذه الدنيا يتألف من هيولى وصورة وأنَّ الصورة (لأنها الروح أعلى وأهم من الهيولى التى هى المادة). فهذه الأفكار كلها موجودة بل أساسية فى البيولوجيا .

لقد سبق أن رأينا الأنواع الثلاثة من الإنجاب : التلقائى ، والانجاب من والد واحد ، كما هى الحال فى النبات عندما توجد هوية بين الجنسين . لكن من الأفضل فى رأى أرسطو ، أن ينفصل الجنس الأعلى « الذكر » عن الجنس الأدنى « الأنثى » ــ وإذا كانت الصورة ، كما سبق أن رأينا ، أفضل من المادة أو الهيولى ، وإذا كانت طبيعتها إلهية أكثر منها ، فإنه يكون من الأفضل ، كلما كان ذلك ممكناً ، أن ينفصل الذكر عن الأنثى[3] .

---

(١) Aristotle, Generation of Animals 7 - A Susan Okin, Women in Western

(٢) Political Thought P. 81.

(٣) وانظر أيضا قوله فى عبارة بليغة وموجزة : « لما كانت العلّة الفاعلة أفضل وأكثر قداسة من المادة التى تعمل عليها ، فمن الأفضل أن يكون المبدأ الأعلى والمتفوق منفصلاً عن الأدنى . ومن ثم فلابد أن ينفصل الذكر عن الأنثى كلما كان ذلك ممكناً » توالد الحيوان ٧٣٢ ــ أ . المجلد الأول من مجموعة المؤلفات الكاملة لأرسطو ، نشرة بارنز سالفة الذكر ص ١١٣٦ .

يقول : فى جميع الحيوانات القادرة على الحركة ينفصل الذكر عن الأنثى ليصبح أحد هذه الحيوانات ذكراً والآخر أنثى على الرغم من أنهما متحدان فى النوع ، مثلما تقول: إن الرجل والمرأة موجودان بشريان ، والفرس والمهرة كلاهما خيل ... إلخ . وأما فى حالة النبات فتندمج هاتان القوتان معاً بحيث لا ينفصل الذكر عن الأنثى ، ولذا فهما ينسلان من ذوات نفسهما ولا ينتجان حيوانات منوية ، بل بذوراً [١].

مرة أخرى علينا أن نلاحظ أن المنظور الميتافيزيقى الأرسطى هو السائد هنا ، أو قل إنه ينقل فكرته الميتافيزيقية ليطبقها على جميع الموضوعات التى يدرسها . فإذاكان هناك هيراركية فى الكون ، وهيراركية سياسية واجتماعية ، فهناك أيضا هيراركية بيولوجية ، أعنى ترتيباً تصاعدياً فى عالم الحياة « إذ تسير الطبيعة متدرجة من الأشياء الجامدة إلى الكائنات الحيةأو الحياة الحيوانية ، بتلك الطريقة التى تجعل من المستحيل وضع خط فاصل دقيق . لكن بصفة عامة نجد أنه فوق الجمادات أو الأشياء التى لا حياة فيها يأتى النبات ، ويختلف نوع ما من أنواع النبات عن نوع آخر فى كمية الحرارة الحيوية الظاهرة . فإذا كان نوع النبات يبدو خاليا من الحياة إذا ما قورن بالحيوان ، فإنه مزود بالحياة إذا ما قورن بالموجودات الجامدة . ومن الملاحظ أن هناك **سلّما صاعداً متصلاً من النبات متجها إلى الحيوان** ... [٢].

ويفرق أرسطو داخل عالم الحيوان ، وفى كل نوع حيوانى ، بين الذكر والأنثى ، ويرى أن الأنثى هى التى تنسل بداخلها أو يتم بداخلها الحمل ، ونمو الجنين وهى لذلك تشبه الأرض . ولعل هذا هو السبب الذى جعل الشعراء يطلقون على الأرض لقب « الأم » وعلى السماء لقب الأب . ويعتقد أرسطو أن النفس (أو الروح) هى قوة الحياة ، وهى الأساس فى الكائنات الحية [٣]، ولما كانت أنواع الكائنات الحية ثلاثة ، كانت الأنفس ثلاثة : النفس الغازية ، وتقوم بعملية التغذى وهى موجودة فى النبات ، ثم النفس الحاسة وهى التى توجد فى الحيوان . والنفس العاقلة الموجودة فى الإنسان . والنفس فى جميع الحالات هى :

---

(١) Aristotle, Generation of Animals 732 - A.

(٢) Aristotle, History of Animals, 588 - A.

(٣) هذا الربط كان قائما فى الفكر اليونانى ، والرومانى بعد ذلك ، وهو ما يوضحه أن كلمة النفس اللاتينية Anima هى التى جاءت منها كلمة الحيوان فى اللغات الأوربية الحديثة = الإنجليزية والفرنسية Animal .

علّة ومبدأ الجسم الحى « وهى » جوهرالأجسام المتنفسة ، مادام علّةالكائن فى كل شئ هو الجوهر [١].

ونصل الآن إلى مساهمةكل من الذكر والأنثى فى عملية الإنجاب لنجد أن أرسطو يذهب إلى أن الدور الحاسم هو دور الذكر الذى يقدّم لنا « الصورة » و « العلة » ومبدأ الحياة أو « الروح » ، والنفس فى الجنين . فى حين أن الأنثى لا تقدّم سوى « المادة » أو « الهيولى » .على نحو ما تتمثل فى دماء الطمث . وهكذا نتبّين بوضوح أن المساهمة التى تقدمها الأنثى فى عملية التوالد هى المادة المستخدمة فى هذه العملية ، وهى إنما توجد فى سائل الطمث . أما الذكر فهو يزودنا بالصورة ، وبمبدأ الحركة والأنثى تزودنا بالجسد أو الهيولى [٢]. ولقد ظلت هذه الفكرة الأرسطية التى تحدد دور الأنثى فى عملية التوالدبتقديم « دماء الطمث » ـ وهى المادة التى يتشكل منها الجنين ـ ظلّت مسيطرة على الفكر البشرى دون أن يطرأ عليها أى تغيير، أو حتى مجرد شك عدة قرون طويلة ـ والغريب أنها موجودة فى سفرِ الحكمة (الذى يلقب أحياناً بحكمة سليمان) حيث يقول هذا السفر : « ... وفى مدّة عشرة أشهُر صُنِعتُ من الدم بزرع الرجل واللذة التى تصاحب النوم» (الإصحاح السابع : ٢). ويمكن أن نراها مصّورة فى كتب « علم التوليد » إبان القرن السادس عشر مثل كتاب « الحمل والولادة » الذى كتبه يعقوب رويف Jacob Rueff عام ١٥٥٤ ولم يبرهن على زيفها ، على نحو قاطع ، سوى وليم هارفى -William Harvey فى كتابه عن توالد الحيوان عام ١٦٥١ بعد تشريحه لمجموعة من الظباء الأناث التى كانت تعيش فى حديقة الملك شارل الأول [٣].

---

(١) أرسطو « فى النفس » ٤١٥ ـ م ـ وص ٥٣ ـ ٥٤من ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى.

(٢) Aeistotle : Generation of Animals 719 - A

(٣) كان عالم الفسيولوجيا الإنجليزى وليم هارفى (١٥٧٨ - ١٥٧) طبيباً للملك شارل الأول ، وقد قام بتشريح مجموعة من إناث الظباء فى مراحل مختلفة عقب الجماع ، فلم يجد كتلة الدم المتوقعة ، ولا منى أو بذرة ، مما سبب إرباكاً شديداً لهارفى نفسه ، ذلك لأن « البويضة » التى تفرزها الحيوانات الثدييةلم يكن قد تمّ اكتشافها بعد (إذ لم تكتشف إلا بعد وفاة هارفى بمدة طويلة) . ونحن نعرف الآن أن دماء الطمث هى مرحلة فى الدورة الجنسية ، وهى مرحلة تعقب عادة مرحلة التحرر الدورى للبويضة من المبيض والتحامها بجدار الرحم فى حالة الإخصاب . راجع تعليقات Beck فى ترجمته لكتاب توالد الحيوان لأرسطو ص Aristotle: Generation of Animal, Trans. by١٠١ A.L.Beck, Harvard Unuversity 1942 . وتقول سيمون دى بوفوار : إن هارفى أجرى مجموعة أخرى من التجارب على إناث الكلاب بعد عملية الجماع فوجد عند عنق الرحم حبيبات ظنّها بويضات لكنها كانت أجنة حقيقية ص٤٠ من كتابها The SecondSex" p.40 Pengiun Books.

إن المناقشة السابقة ، فيما يعتقد أرسطو ، تلقى كثيراً من الضوء على وضع الانثى ، ودورها من الناحية البيولوجية : إذ على الرغم من أن الأنثى لا تسهم بأية حيوانات منوية على الإطلاق ، فإنها مع ذلك تسهم بشيء ما هو العنصر الذى يتألف منه سائل الطمث أو العنصر الذى يقابله فى الحيوانات التى تعوزها الحيوية Bloodless.

وسيتضح لنا الشيء نفسه لو نظرنا إلى الموضوع من زاوية نظرية ، فها هنا نجد أنه لابد من وجود من يولدومن تلد ، وحتى لو اجتمع الاثنان فى شئ واحد فلابد لهما أن يختلفا فى النوع . وفى الحيوانات التى تنفصل فيها هاتان الملكتان فإن جسد المشارك الإيجابى ، وجسد المشارك السلبى، لابد أن يختلفا . ومن ثم فإذا كان الذكر هو الجانب الإيجابى ، فإنه هو الذى يخلق الحركة ، أما الانثى من حيث إنها هى الجانب السلبى ، فلابد أن يكون ما تسهم به ، وما تقدمه للجنين ليس حيوانات منوية ، وإنما هو « المادة » ، وهذا ما نجد أنه يحدث بالفعل ، لأن العنصر الطبيعى لسائل الطمث هو المادة الأولى[1]. وعلينا أن نلاحظ فى هذا النص عدة أمور :

أولاً : أن أرسطو يفترض وجود صورة ومادة فى ميدان البيولوجيا ثم يشرع فى البحث عنهما .

ثانياً : أنه يرفض ما كان يقول به الأبيقوريون من أن الأنثى تسهم بحيوانات منوية .

ثالثاً : أنه يجعل من الذكر الصورة ، ومن الانثى المادة أو الهيولى ، وبالتالى فالذكر هو الإيجابى النشط الذى يبعث الحركة والحياة فى المادة . أما الأنثى فيقتصر دورها على تقديم« سائل الطمث » ، ومن ثَّم فهى تمثل الجانب السلبى المتقبل Passive.

رابعاً : لما كان الذكر نشطاً ايجابياً Active فإنه هو الذى يتسبب فى الحركة أعنى أنه هو علة الحركة . ولما كانت الأنثى سلبية فهى التى تقع عليها الحركة .

خامساً : أن « الطبيعة فى كل ما تعمل إنما تعمل ببراعة فائقة فى كل جزئية صغيرة على نحوما يتوقع العقل تماماً »[2].

وينتهى أرسطو من ذلك كله إلى هذه العبارة الجامعة :

---

(١) Aristotle, Generation of Animal, 799 - A.

(٢) راجع فى ذلك كله « توالد الحيوان »٧٢٩ ـ ب و ٧٣١ ـ أ (والمجموعة الكاملة لمؤلفات أرسطو، المجلد الأول ص ١١٣٥) .

فلنقل إذن :

(١) أن الذكر هو المبدأ أو هو العلّة من حيث طبيعته ذاتها .

(٢) وأن الذكر ذكر بفضل قدرته الخاصة ، وأن الأنثى أنثى بسبب عجزها الخاص .

(٣) أن الخط الفاصل الذى يحدد القدرة والعجز هو ما إذاكان الكائن يؤثر أو لا يؤثر فى إعداد الغذاء النهائى .

(٤) أن سبب ذلك يكمن فى« المبدأ » ، أعنى فى ذلك الجزء من الجسد الذى يملك الحرارة الطبيعية .. »[١].

* * *

(١) المرجع ذاته ٧٦٦ ـ أ .

رابعاً : تحديد الجنين :

الذكر هو الذى يهب الصورة أو « الروح » لدماء الطمث التى هى أشبه بالمادة الميتة ، ومن هنا كان الذكر هو الذى يقوم بوظيفة العلّة الفاعلة فى حين أن الأنثى لا تقدّم سوى الهيولى« فدماء الطمث فى الأنثى تقابل الحيوانات المنوية فى الذكر ، أعنى الدم الفائض الذى عجزت الأنثى ، نظراً لدونية الحرارة الحية عندها ، أن ينطبع عليه السائل المنوى ، ولما كان هذا السائل هو الصورة ، فإنه يقوم بوظيفة العلّة الغائية أو الصورية فى النسل . فى حين تكون دماء الطمث هى العلة المادية . إن عنصر الذكر يعمل فى عنصر الأنثى كما تخفر الإنفحة اللبن ، وهذه مقارنة بين شئ طبيعى وشئ صناعى »[1].

وعلينا أن ننتبه جيداً إلى أن الحيوانات المنوية ليست شيئا مادياً يتحد مع دماء الطمث ليشكل جنيناً ، إنها الصورة أو « الروح » ، فعندما يقذف الذكر فى الأنثى بهذه الحيوانات المنوية ، فإنه فى الواقع لا يقذف بشئ مادى يمكن أن يكون جزءاً من جنين مقبل[2]، تماماً كما أنه لا يخرج من النجار الذى يصنع المنضدة جزء مادىّ يضاف إلى المادة التى يشتغل عليها وهى الخشب ، وإنما يأتى من عنده بالشكل أو الصورة التى تنطبع على المادة بواسطة الحركة التى يقوم بها ، فيداه تحركان أدواته، وأدواته تحرك المادة... إلخ . والواقع أن معرفته بفنه أو « روحه » التى هى الصورة ، هى التى تحرك يديه أو أى جزء آخر من أعضاء جسمه حركة من نوع معين ، وهى حركة تتغير بتغير طبيعة الموضوع الذى يعمله. وبطريقة مماثلة فإننا نجد أن الطبيعة تستخدم هذا السائل فى الحيوانات التى يقذف فيها الذكر سائلاً منويا كأداة تملك الحركة تماماً كالأدوات المستخدمة فى أى « فن » ، وتلك هى الطريقة التى يسهم بها الذكر فى عملية التوالد [3].

لقد نوقشت أسباب تحديد جنس الجنين قبل أرسطو ، وقد عرض هو نفسه للآراء المختلفة فى كتابه « توالد الحيوان » فقال : « لقد كانت هناك اختلافات كثيرة حول ما إذا

---

(١) Aristotle , Generation of Animals 730 - B .

(٢) معنى ذلك أن الذكرلا يقدّم شيئاً مادياً فى عملية التناسل بل « روحياً » . ولقد استخدم القديس توما الاكوينى هذه النظرية الأرسطية التى تقول : إن الذكر لا يقدم « مادة » من أجل تكوين جسم الجنين فى الدفاع عن فكرة ميلاد المسيح من العذراء ـ ألفرد تيلور « أرسطو » ص ٩٢ ترجمة د. عزت قرنى دار الطليعة بيروت عام١٩٩٢ .

(٣) Aristotle : Op. Cit .

كان الجنين ذكراً أو أنثى ، وما إذا كان هذا التمايز يتحدد داخل الأم أم حتى قبل ذلك . فذهب أنكساجوراس Anaxagoras وغيره من الطبيعين إلي أن ذلك إنما يوجد منذ البداية في البذور ، لأن البذور تأتى من الذكر ، فى حين أن الأنثى تهيىء المكان فحسب . وإذا كان الذكر يمثل اليمين ، والأنثى تمثل اليسار ، فإنه إذا كان الجنين ذكراً فإنه يكون فى الجانب الأيمن من الرحم ، فى حين أن انباذوقليس Empedocles يذهب إلى أن التمايز يتم فى الرحم ، فإذا كان الرحم ساخناً فإن ما يدخل فيه يصبح ذكراً ، أما إذا كان بارداً فإنه يصبح أنثى . أما علة الحرارة والبرودة فتأتى من سائل الطمث تبعاً لبرودته وحرارته ، ولحداثته وقدمه .

كما ذهب ديمقريطس إلى أن الجنن يتحدد فى الرحم أيضاً لا بسبب الحرارة والبرودة وإنما بسبب أن سائل الوالدين هو الذى ينتشر .... الخ [١] .

غير أن أرسطو لا يعتقد أن أحداً من أسلافه قد درس الوقائع دراسة جيدة ، أو اقترب من الحقيقة بقدر كافٍ ، لهذا نراه يقدم نظريته الخاصة التى يراها أكثر إقناعاً ، وهى التى يذهب فيها إلى أن تحديد جنس الجنين يتم من حيث المبدأ ، فى نفس اللحظة التى يحدث فيها الجماع . وتتشكل أجزاء الجنين الجنسية بعد ذلك استجابة لحاجة الكائن الحى إلى هذا العضو أو ذاك [٢] .

وعلى أساس مبادىء مماثلة يفسر أرسطو نوع الجنين ، وخصائص الوراثة أيضاً . فإذا كان الذكر هو العنصر الغالب على الأنثى غلبة تامة جاء الجنين ذكراً ، ولو أن سائل الطمث كان معداً إعداداً جيداً . فإن الحركة التى يطبعها الذكر عليه ستجعل صورة الجنين شبيهة بوالده .. وهكذا لو أن هذه الحركة كانت لها الغلبة لجعلت الجنين ذكراً لا أنثى يشبه والده لا والدته . [٣] أما إذا كان الذكر هو العنصر الغالب ، لكن الحركة التى يطبعها تتعدل بسبب ردود فعل الأنثى ، جاء الجنين يشبه جده لا والده ، وإذا كانت التعديلات عميقة ، جاء االصغير يشبه أجداده لأبيه . أما إذا كان الذكر هو العنصر الغالب من حيث هو فرد لا من حيث هو ذكر ، فسوف يكون الجنين أنثى ، ولكنها تشبه والدها [٤] .

(١) Aristotle : Generation of Animals 764-A.

(٢) W .D .ross, Aristotle P. 121-122 .

(٣) Aristotle . Op. 767-B .

(٤) W .D .ross, Aristle .P . 122

وإذا كانت الأنثى هى العنصر الغالب ، فسيكون الجنين أنثى تشبه أمها ، لكن إذا كان عنصر الأنثى ، رغم أنه الغالب ، يمكن أن يتعدل مساره ، فسوف يكون الجنين أنثى تشبه أجدادها لأمها . (١)

وفى جميع الحالات فإن الذكر يقدم « الصورة » ، فى حين تزودنا الأنثى بالهيولى أو المادة التى تنطبع عليها هذه الصورة ، وكثيراً ما تكون المادة غير مُعّدة إعداداً جيداً ، فلا يجيء الانطباع جيداً. ومن هنا فإن أرسطو ينفى بشدة قيام الأنثى بتزويد الجنين بشىء آخر غير المادة . وهذا هو السبب الذى جعله يرفض وجهة نظر الأبيقوريين التى كانت تذهب إلى أن الأنثى تسهم بحيوانات منوية . ولهذا نراه يؤكد مراراً أنها نظرية فاسدة . يقول : وهكذا نتبين بوضوح أن المساهمة التى تقدمها الأنثى فى عملية التوالد هى المادة المستخدمة فى هذه العملية . وهى إنما توجد فى سائل الطمث .

وهناك مَنْ يعتقد أن الأنثى تسهم بتقديم سائل منوى أثناء الجماع ، بسبب ما تشعر به بعض النساء أحياناً من متعة يمكن مقارنتها بمتعة الذكر . كما أنهن يفرزن سائلاً أثناء العملية الجنسية . غير أن ذلك يحدث عند بعض النساء دون البعض الآخر (٢) . وهو بصفة عامة يحدث عند النساء صاحبات الجلد الرقيق ، الناعم الجميل : اللائى نجد عندهن طابعاً أنثوياً أصيلاً ، لكنه لا يحدث عند صاحبات الجلد الخشن ، وذوات المظهر الرجولى .(٣)

وسبب هذا الجهد الذى يبذله أرسطو فى تفنيد هذه الفكرة هو حرصه الشديد على

---

(١) Ibid.

(٢) واضح أن هذه إشارة إلى ما يسمى بإفراز المهبل ، وهو افراز طبيعى ، قارن توالد الحيوان ٧٣٩ ـ أ . وكذلك ٧٣٧ ـ أ . لكن يبدو أن الجزء الأخير من العبارة يصف السيلان الأبيض المهبلى وهو يدخل فى علم الباثولوجى (علم الأمراض) ، ومن الواضح أن هناك خلطا بين الاثنين ، قارن ترجمة بيك A. L. Beak من طبعة جامعة هارفارد Harrvard University ص ١٠٢ وما بعدها فى سلسلة لويب Loeb . قارن أيضا المجلد الأول من مجموعة مؤلفات أرسطو ص ١١٤٣ وما بعدها ، وكذلك ص ١١٤٦ ـ ١١٤٧ من نشرة بارنز J . Barnes سالفة الذكر .

(٣) Aristotle, Generation of Animals, 739-B.

الدفاع عن فكرته الأساسية التى تقول إن الأنثى تزودنا بالطمث فقط [1] ، وهو « الهيولى » أو المادة التى يتشكل منها الجنين - هو أدنى مرتبة من الصورة فى عملية التوالد (لأن المادة أدنى من الصورة باستمرار) . فى حين أن الحيوانات المنوية هى الصورة ولهذا كانت العنصر الأعلى والأسمى لأنها تزود الجنين بالروح ، وبالمبدأ العقلى - الذى هو مصدر الحياة والحركة ، فكيف يمكن ، إذن ، أن تكون لدى الأنثى حيوانات منوية وهى الموجود الادنى؟! أليس فى ذلك هدم واضطراب لترتيب الموجودات ، وللنظام الهيراركى التصاعدى فى الكون ؟! الواقع أن هذا النظام الأساسى عند أرسطو هو الذى يفسر كل شىء ، بما فى ذلك عملية الإنجاب التى هى المبرر الوحيد لوجود الأنثى على الإطلاق . إن الأنثى موجود يتسم بالعجز والقصور ، والدونية ، والسلبية - ولهذا ينبغى عليها الخضوع والاستسلام ، أما الرجل فهو الإيجابى النشط ، وهو الأعلى ، والأرقى ، والأسمى ، ومن ثم فهو الذى يأمر وهو الذى يحكم وهو الذى يفكر ، ويناقش ، ويكوّن الآراء ، ويقدم الحجج ، ولهذا فهو الإنسان على الأصالة - ولا سيما الرجل اليونانى الحر على نحو ما سنعرف بعد قليل عندما نتحدث عن السياسة ، إنه المؤهل لا فقط لحكم النساء بل لحكم البشرية كلها ، أما المرأة فيكفيها فخراً أنها تقوم بدور « الوعاء » أو الحامل السلبى المتقبل الذى يُمكّن الذكر من الإنجاب . وإذا تساءلنا الآن عن تحديد دور الوالدين « بدقة » فى جنس المولود ؟ لكانت الإجابة : الواقع أن أرسطو يشير إلى دور الأب والأم بطريقة « فضفاضة » ، ذلك لأن العنصر الحقيقى الذى يعترف أرسطو بدوره اعترافا واضحاً هو **الذكر** فحسب طالما أنه هو الذى يسهم بأن يهب الجنين « الحياة » عندما يهب « الروح » التى هى مبرر وجوده ، أما الأنثى فإن دورها يقتصر ، كما قلنا ، على تزويد هذه الحياة الجديدة **بالجسد** أو المادة فقط !

وفضلاً عن ذلك فإن الوظيفة الأساسية والكاملة للتوالد هو إنجاب طفل يشبه الأب ، وليس طفلاً يشبه الأم فى الخصائص الجنسية وغير الجنسية على السواء . وأى انحراف عن

---

(١) « تخيل أرسطو أن الجنين ينشأ من اتحاد الحيوان المنوى مع دماء الطمث ، وأن المرأة لا تزوده إلا بالمادة السلبية فحسب ، بينما يزوده الذكر بالقوة والحركة والحياة والنشاط . وقد أخذ أبقراط بنظرية مماثلة فاعترف بوجود نوعين من البذور ، بذور ضعيفة عند الانثى ، وبذور قوية عند الذكر ، ولقد ظلت نظرية أرسطو مسيطرة طوال العصور الوسطى والعصور الحديثة » . ص ٤٠

Simone de Beauvoir : The Second Sex p. 40 Eng . Trans . by H . M . Parshley Penguin Books .

هذا الشبه (شبه الأب) هو قصور [١] . ومن هنا فإن أرسطو يقول : « إن ذلك الذى لا يشبه والديه من الأطفال هو ، بمعنى ما ، تشوه خلقي Monstrosity ، لأن الطبيعة تكون فى هذه الحالة ، قد انحرفت بطريقة ما عن النموذج أو المثال .

والواقع أن الانحراف الأول هو أن يجيء النسل أنثى بدلا من أن يكون ذكراً ، وإن كان ذلك يمثل ضرورة طبيعية (لأن فئة الحيوانات التى تنقسم إلي جنسين لا بد أن تبقى ، كما أن الذكر فى بعض الحالات لا يستطيع أن يتغلب على الأنثى ، ولهذا فمن الضرورى للحيوانات أن تنجب أنثى – وهكذا نجد أن التشوه الخلقى (أعنى إنجاب الإناث) رغم أنه ليس ضرورة تلقائية ، فإنه مع ذلك حادث ضرورى .[٢]

والواقع أن لدينا مفارقة هنا ، فعلى الرغم من أن السلوك الطبيعى فى توالد الحيوان ، هو كما قلنا أن ينجب الفرد فرداً آخر يشبهه ، فإن الوظيفة الكاملة للأنثى هى إنجاب فرد يشبه الزوج أو الذكر – فماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن إنجاب الذكور بواسطة الذكور هو علامة تفوق فهو سيطرة كاملة وغلبة تامة للذكر . ولهذا نراه يقول : « لقد أنجب هرقل ابنة واحدة فحسب ، وسط ذرية بلغت اثنين وسبعين طفلاً . [٣]

فجانب بارز من عظمة هرقل وفحولته أنه أنجب البنين بالعشرات ، ولم ينجب من الإناث سوى طفلة واحدة فحسب لأن إنجاب الإناث ليس دليلاً على التفوق . حتى أن إنجاب الإناث بواسطة الإناث ، هو علامة ضعف ، إنه يحدث بسبب انعدام المزج الجيد أو الإعداد الصحيح لدماء الطمث . ومن ناحية أخرى فإن إنتاج الذكور بواسطة الأنثى ليس فخراً للمرأة أو مجداً لها أيضاً ، بسبب فكرة أرسطو عن الصراع بين عناصر الذكر والأنثى فى تحديد جنس الجنين ، والنتيجة التى لا مندوحة عنها هى أن الوظيفة الأكثر كمالاً تعنى خلق الظروف التى يسود فيها عنصر الذكر [٤] .

ومن الواضح أن معيار الإنجاب هو معيار وضع الذكر فحسب ، فالأفراد الذين يسعون للمشاركة فى الخلود بإنجاب أفراد شبيهة بهم هم الذكور فحسب . أما مشاركة الأنثى فهى جد مختلفة . إذ الواقع أن المرأة هى أداة لخلود النوع ، فهى موجود بشرى بالقوة لا بالفعل لأن الوجود البشرى الفعلى لوجودها هو أن تكون حاضنة لطفل ذكر . [٥] .

---

(١) Lynde Lange : Women is not A rational " p . 11 in Discovering Reality,.

(٢) Aristotle, Generation of Animals 767-B.

(٣) Ibid, 585-B.

(٤) Lynda Lange : Op ` Cit. P. 11 .

(٥) Ibid, P. 12.

خامساً : كيف تتم المساهمة ؟

المشكلات البيولوجية التى ظهرت فى عصر أرسطو كثيرة منها : كما سبق أن رأينا ، هل يفرز الذكر والأنثى حيوانات منوية على حد سواء ؟ علماً بأن الحيوانات المنوية كانت تفهم ، فى ذلك الوقت ، فهماً واسعاً غير دقيق بوصفها المبدأ الذى يؤدى إلى حركة النمو فى الجنين أو الكائن الحى الجديد ، وتسمى بالسائل المنوى .

مشكلة أخرى هى كيف تتم مساهمة الوالدين : هل تخرج الحيوانات المنوية بالمعنى الذى استخدم فيه أرسطو هذا اللفظ من جسد الأبوين معاً (الذكر والأنثى) أم أنها تأتى من واحد منهما فقط -؟ لقد طرح أرسطو هذه المشكلة وأجاب عنها كما يأتى :

« من المهم أن نبحث فيما إذا كانت الحيوانات المنوية تأتى من الذكر والأنثى معاً ، أم ينتجها أحدهما فحسب ؟ وما إذا كانت تخرج من الجسد كله أو لا ، إذ لو صح هذا الاحتمال الأخير ، لكان من المعقول أن نفترض أنها لا تخرج من الوالدين معاً »[1]

ولقد سبق أن رأينا كيف رفض ارسطو أن تكون عند الأنثى حيوانات منوية ، وكيف ذهب إلى أن الأنثى لا تزودنا إلا بالمادة فقط ، وعلى ذلك لم تبق سوى مشكلة المساهمة : أهى من الجسد كله أم من جزء من أجزائه ؟ ويقال أن أرسطو كان يحاول تفنيد نظرية أبقراط Hippocrates (٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م) العالم والطبيب الذى يعُد أب الطب اليونانى فراح يسوق الحجج التى يدحض بها النظرية التى تذهب إلى أن الحيوانات المنوية تخرج من جسد الوالدين معاً . يقول : « إذا لم تكن الحيوانات المنوية تخرج من جسد الأنثى ، فإنه من الصواب أيضا أن نفترض أنها لا تخرج كذلك من جسد الذكر ككل . وإذا لم تكن قد نتجت من جسد الذكر ككل ، فليس من الخطأ أن نقول أنها لا تخرج من الأنثى ، وإنما تشارك الأنثى فى الإنجاب بطريقة أخرى »[2] وهكذا نجد أن الموقف المعارض هو الأكثر قبولاً : فلو كانت الحيوانات المنوية لا تخرج فعلاً من الجسد كله ، لكان من الضرورى فى هذه الحالة أن ينتجها طرف واحد (أعنى أحد الوالدين فقط) لتشكل كائناً جديداً ، والعكس ، إذا خرجت من جزء معين من الجسد ، فإنه يمكن للوالدين المساهمة فيها . وتبدو النظرية الأخيرة أكثر اتساقاً مع البيولوجيا الحديثة التى نرى أن نصف الجينات يأتى من الذكر عن طريق الحيوانات المنوية ، بينما يأتى النصف الآخر من الأنثى عن طريق البويضة[3] .

---

(١) Aristotle, Generation of Animals 721-B.

(٢) Ibid.

(٣) Lynda Lange : Woman is not A rational Animal p. 11.

لقد ذهب ديمقريطس Democritus ، وإنباذوقليس Empedocles وأنكساجوراس Anaxagoras إلى أن السائل المنوى يخرج من الجسم كله . ولقد ساق أرسطو ضد هذه النظرية اعتراضات قوية [١] . وبدلاً من القول بأن السائل المنوى يخرج من الجسم كله ، ذهب إلى أنه يصل إلى جسد الجنين كله . لكن كل طرف من الوالدين يسهم بعامل خاص مختلف عن الآخر : فمادة الجنين ونموه يكتسبها من الأنثى ، أما بث الحياة والحيوية فى هذه المادة فهو يأتى من الذكر . ذلك لأن الأنثى لا تنجب إلا إذا لقحها الذكر تماما كما أن النجار وأدواته لا يصبح جزءاً من المادة المشكلة ، فكذلك الحيوانات المنوية لا تصبح جزءاً من إفرازات الأنثى[٢] وأرسطو يجهد نفسه ، فى ذلك كله ، للبرهنة على أن الأنثى لا تقدم فى عملية التناسل سوى المادة التى هى دماء الطمث ، وأن الذكر هو الذى يقدم الصورة أو الماهية أو الروح كما أنه ، كما سبق أن ذكرنا ، هو الذى يقوم بالدور الإيجابى النشط ، والأنثى بالدور السلبى المتقبل ... إلخ وينتهى أرسطو من ذلك كله إلى القول بأن المرأة ليست موجوداً إنسانياً مكتمل النضج ، وإنما هى أقرب إلى الطفل الذكر أو قل إن الصبى يشبه المرأة فى الصورة . أما المرأة فهى أشبه ما تكون برجل عاجز أو مصاب بالعُنّة[٣] كما أعلن القديس توما الأكوينى St. Thomas Aquinas (١٢٢٥- ١٢٧٤) متأثراً بأرسطو أن « المرأة موجود عارض » وأنها رجل ناقص [٤] .

وفى استطاعتك أن تقول الشىء نفسه بالنسبة لعملية التوالد أو الإنجاب ، فالذكر ذكر بفضل قدرته الخاصة ، والأنثى أنثى بفضل عجزها الخاص[٥] .

وعلى الرغم من أن أرسطو يصف الطبيعة بأنها لا تفعل شيئاً باطلاً ، وأنها تعمل كما يتوقع منها العقل أن تعمل ، فهى أشبه ما تكون بالصانع الماهر .. إلخ[٦] ، رغم ذلك كله

---

(١) قارن الحجج الأربعة التى يسوقها فى توالد الحيوان ٧٢١ ـ ب (المجلد الأول من المؤلفات الكاملة ص ١٢٠ أو ما بعدها) .

(٢) J . H .Rondall, Aristotle, p. 238 (Columbia University 1968).

(٣) Aristotle, Generation of Animals 728-A.

(٤) Simonc de Beavoir : The Second Sex P. 38.

(٥) Aristotle, op. 766-A.

(٦) Ibid. 767-A.

فإنه يقول : ينبغى علينا أن ننظر إلى الأنثى على أنها تشوه خلقى أو أنها موجود مشوه إن صحّ التعبير ، رغم أنه تشوه حدث فى المجرى المعتاد للطبيعة [١] . وهو يفسر ظهور هذه المخلوقات الشاذة الشائهة فى الطبيعة بسبب الانحراف الأول عندما تشكلت الأنثى بدلاً من الذكر . لكن ذلك كان ضرورة اقتضتها الطبيعة لبقاء النوع الذى لا بد أن يظل موجوداً [٢] ومادامت الكائنات الحية تتطور فلا بد أن ينفصل الذكر عن الأنثى ليكون كل منهما ذا وجود مستقل ، فلا يكون الأمر على نحو ما هو عليه فى النبات . وهكذا نجد أن الانحراف الأول فى الطبيعة هو الذى أنتج الأنثى بدلاً من الذكر : فالطبيعة لا تصنع النساء إلا عندما تعجز عن صنع الرجال !

ظهور الأنثى ، إذن هو الانحراف الاول ؛ لأن الأصل أن تنتج الطبيعة ذكراً ، غير أن الانحرافات تتكرر فى عملية الإنجاب ، فإذا كان الذكر يعطى الصورة ويطبعها على المادة – فإن تفوقه يجعل الجنين ذكراً (أى إذا كانت الغلبة للصورة) لكن إذا انحرفت الطبيعة وهى الآن ممثلة فى الأنثى التى تنسل – كان الجنين أنثى !

و بعبارة أكثر وضوحاً : عندما يكون الجنين ذكراً ، فإن هذه « الميزة » تعود إلى الأب الذى استطاعت « الصورة » أو « الروح » التى يبعث بها عبر الحيوانات المنوية أن تتغلب على مادة الأنثى ، أما إذا كان الجنين أنثى فإن هذه « السقطة » تعود إلى الأم التى لم تمزج دماء الطمث جيداً ، ولم تعدّه إعداداً حسناً لتنطبع عليه الصورة . وهى نفس الفكرة الموجودة عند العامة حتى الآن . فى حين أن التفسير العلمى الصحيح يجعل الرجل وحده مسئولاً عن تحديد نوع الجنين ، لأن المرأة لديها الاستعداد لإنجاب الذكر والأنثى على حد سواء ، ذلك لأن صبغيات الأنثى متماثلة ويرمز لها بالحرفين (× ×) لكنها عند الذكر مختلفة الشكل والحجم والتركيب ويرمز لها بالحرفين Y × [٣] .

***

(١) Ibid. 767-B.

(٢) Ibid.

(٣) قارن مقالنا « ذكر وأنثى » فى كتابنا « أفكار ومواقف » مكتبة مدبولى ـ القاهرة .

سادساً : ضعف الأنثى :

عندما ناقش أرسطو الآراء الفلسفية التى كانت ترى أن الأنثى تحمل حيوانات منوية تسهم بها فى عملية التناسل ، كما ذهبت بعض المداس الفلسفية فى اليونان كالأبيقورية مثلاً ، فإننا نراه يضع بعض الوقائع المهمة التى تساعد على حل هذه المشكلة . (وهى مشكلة خطيرة فى نظره لأنها تهدم فكرته عن المادة والصورة - وبالتالى وضع الانثى والذكر- منها قوله : الكائن الذى تزوده الطبيعة بقدر أقل من الحرارة هو الكائن الأضعف .. ولقد سبق أن قررنا بالفعل أن تلك هى خاصية الأنثى [1] . وهو يقول فى كتابه « أجزاء الحيوان » : أنبل الحيوانات جميعاً ، تلك التى تكون دماؤها حارة ، أعنى ذوات الدم الحار الذى يكون فى الوقت نفسه صافياً ، لأن مثل هذا الدم يتناسب مع تطور الشجاعة والذكاء .. ومن هذه الزاوية نجد أن الأجزاء العليا أرقى من الأجزاء السفلى . كما نجد أن الذكر أرقى من الأنثى ، والجانب الأيمن أرقى من الجانب الأيسر [2] .

وعلى حين أن مسألة كمية الحرارة فى الدم تبدو لأرسطو مسألة حقائق مؤكدة يقررها فحسب ، فإن زيادة الحرارة هى الأساس ؛ لأنها كلما زادت دلّ ذلك على زيادة ملكات النفس وهذا التدرج فى قوى النفس ، وليست كمية الحرارة فى حد ذاتها هى التى تقوم بالدور الأساسى فى التمايز بينهما ، ومن ثم فإن تفوق الذكر يتخذ صورة زيادة قوى النفس، ومن هنا تكون الأنثى حرفياً « نقص الذكر » (وهى عبارة سوف يرددها القديس توما الأكوينى بعد ذلك بنصها) وعلينا أن نتذكر باستمرار تلك الحقائق الغريبة التى يقررها أرسطو بلا برهان ولا دليل ! المرأة هى ذكر واهن أو ضعيف إن صح التعبير ، لأن الأنثى لا تكون أنثى إلا من خلال عجز معين ، أعنى عندما تعجز عن إعداد المواد الغذائية ، وتحويلها فى مراحلها الأخيرة إلى حيوانات منوية [3] والسبب الأساسى فى الخلط الأرسطى أن الحيوانات المنوية لم تكن قد اكتشفت بعد ، فقد كانت مجرد سائل ينقل « الصورة » أو وسيلة لجلب « الروح » إلى المادة ، ومن ناحية أخرى لم تكن البويضة التى هى

---

(١) Aristotle, Generation of Animals 726-B.

Aristotle, Parts of Animals G 43-A.

(٢) وقارن الترجمة العربية القديمة ليوحنا البطريق التى نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى بعنوان « أجزاء الحيوان » ص ٧١ ـ ٧٢ ، وكالة المطبوعات بالكويت عام ١٩٧٨ .

(٣) Aristotle, Generation of Animals 728-A.

(Complete Works, Vol . 1 .p . 1130)

الإسهام الأساسى للأنثى فى الإنجاب - قد اكتشفت أيضاً ، هذا فضلاً عن أن الأفكار الميتافيزيقية الأساسية هى التى كانت توجه الفيلسوف فى بحثه ، وتجعله يبحث عن العلل والحجج ، والبراهين التى تؤيد نظرة رجل الشارع اليونانى إلى المرأة !

أما فى كتابه « توالد الحيوان » فإننا نراه يضع « الوقائع » الخاصة بضعف النساء وقلة الحرارة عندهن جنباً إلى جنب مع واقعة أخرى من وقائع الملاحظة . فقد كتب يقول : إن إفرازات الحيوان الضعيف تكون أعظم فى الكم وأقل فى الكيف . ومعنى ذلك أنها ستكون أقرب شبهاً بالدم ، وهو ما نجده عند الأنثى . فما دام أرسطو قد رتّب الحيوانات طبقاً لكمية الحرارة ، فقد حدد وضع الأنثى منذ البداية ، فهى أقل درجة من الذكر فى سُلّم الاختلاف بين الحيوانات . وهذه الدونية المزعومة للأنثى هى عند أرسطو ، إحدى النقاط التى يبدأ منها العلم ، والتى تتأسس على مظهر من مظاهر التجربة . ومهمة فلسفة الطبيعة أن توضح هذه الحقيقة العلمية التى لم تأت نتيجة لاستدلال عقلى [١] .

وهكذا يقرر أرسطو الواقع القائم فى مجتمعه ، والذى فرضته العادات والتقاليد ، وأعنى به الوضع المتدنى للمرأة - ثم يشرع فى البحث عن تفسير فلسفى له ، تماماً مثلما فعل فى نظريته عن الرق التى دافع فيها بقوة عن فوائد هذا النظام العجيب ، وأنه مفيد للسيد والعبد معاً ، وأنه نظام فرضته الطبيعة التى لا تفعل شيئاً باطلاً .

ولقد سخرت هنيتكا J . Hintikka من نظرية أرسطو وتفسيره لهذا الواقع المتدنى للمرأة عندما ساقت حواراً تخيلت أنه يدور بينها وبين المعلم الأول على النحو التالى :

- ليست المرأة مواطنة ؟

- ولماذا .. ؟

- لأن المرأة أقل من الرجل !

- ولماذا .. ؟

- لأنها تخلو من أعلى صورة للعقل البشرى .

- ولم .. ؟

- لأنه لا توجد لدى المرأة الحرارة الحية الكافية لممارسة أعلى صور العقل البشرى .

---

(١) Lynda Lange, Op . Cit . p.

- ولم ؟

- لأنه هكذا تكون المرأة : حرارتها الحيـة أقل من حرارة الذكـر ، وهذا هو تعريف المرأة .. [١]

وهذا الحوار الطريف يذكرك بعبارة برناردشو عن وضع الزنوج فى الولايات المتحدة ونظرة الرجل الأبيض إليهم ، يقول : « الرجل الأمريكى الأبيض يهبط بالزنجى إلى مستوى ماسح الأحذية ، ثم يستنتج من ذلك أن الزنجى لا يصلح إلا لمسح الأحذية »[٢] .

* * *

(١) « مقومات العلم الأرسطى ... » مقال فى مجلة نوس عدد ٦ ص ٥٥ ، ٦٩ (نقلاً عن ليندا لاغ) .
The Ingredients of An Aristotelian Science, Nous, 6-pp. 55-59 .

(٢) Quoted by Simone de Beauvoir in " The Second Sex " p. 24 Trans by H . M .Parshley Penguin (Cassics Books, 1953) .

سابعاً : نتائج :

١ ـ رأينا أن أرسطو يـقدِم على دراسة البيولوجيا ، وفى ذهنه مجموعة من المبادىء الميتافيزيقية التى هى أقرب إلى ما نسميه اليوم بالفروض ، مع فارق أساسى هو أن هذه المبادىء ليست فروضاً ، وإنما هى حقائق مؤكدة يبحث لها عن أمثلة تطبيقية فى عالم الواقع . ولهذا فإن هذه المبادىء هى التى توجه تفكيره وترشده وتنير أمامه الطريق ، ولهذا نراه يبدأ الدراسةِ بحثاً عن الهيولى ، والصورة ، والوظيفية ، والأعلى والأدنى ، وسلّم الهيراركية الذى ينظّم مراتب الموجودات فى العالمين العضوى وغير العضوى على غرار نسيج البيئة الاجتماعية ، والوضع القائم Status Quo فى المجتمع اليونانى .

٢ ـ تفسير « الوقائع الموجودة » أو الكشف عن « العلل » التى يمكن تكون هى « المقدمات » ، فى الوقت الذى تكون فيه الوقائع التى نلاحظها هى « النتائج » أى أننا لا نزال فى ميدان البيولوجيا نبحث موضوعات الدراسة بمنظور فلسفى ميتافيزيقى : « لأن مبادىء العلم عند أرسطو تتحدد وفقاً للنظام العقلى للأشياء » (١) .

٣ ـ من بين الافكار الأساسية التى يضعها أرسطو فى ذهنه وهو يدرس موضوعات البيولوجيا – الفكرة التى كانت شائعة فى المجتمع اليونانى عن دونية المرأة ، وانحطاط قواها العقلية ، وسيطرة انفعالاتها وشهواتها عليها ، أو ما سوف يسميه بالعنصر اللاعقلى فى النفس البشرية – على نحو ما سنعرف فى الفصل القادم ، ولهذا فلا بد أن تخضع مستسلمة للرجل الذى عنده العنصر العقلى ، ويتحكم فى الجانب غير العقلى ، وإلا فمن أين جاء بالفكرة التى ترى أن المرأة لا بد أن تكون هى « الهيولى » وأن يكون الرجل هو الصورة التى هى أعلى وأرقى وأسمى ؟ ولم لا يكون العكس ؟ وما هى الأدلة أو البراهين العقلية على أن الرجل يسهم فى عمليه التوالد بالصورة التى هى « الروح » ، وبالتالى فالحيوانات المنوية ليست « مادة » وإنما هى وسيلة انتقال تعبر عليها الروح إلى دماء الطمث لتطبع عليها لكى يتخلق الجنين ويظهر .. ؟ قد يقال إن أرسطو لم يكن يعرف ماهية الحيوانات المنوية ، وهذا حق ، لكنه لم يكن يعرف شيئا أيضاً عن البويضة ! وإنما كان يعرف عن يقين ، أن المرأة لابد أن تكون أقل مرتبة من الرجل تبعاً للهيراركية العامة للموجودات ، وهى فكرة ميتافيزيقية لا برهان عليها ، وبالتالى فلا بد أن يكون هناك مَنْ هو أدنى ، ومَنْ هو أعلى ، لا بد أن يكون هناك ، سيد ومسود ، حاكم ومحكوم ، فليس ثمة مساواة بل تفاوت طبيعى واضح . ولما كان العرف اليونانى قد جرى على أن تكون المرأة هى

(١) Lynda Lange, Op . Cit . p. 7.

الأدنى ، وهى المحكومة ، وهى التى تطيع... الخ . لهذا كانت هى المادة أو الهيولى ، وكان الرجل هو الصورة والروح ، والمبدأ العقلى .

٤ ـ وهكذا يصل أرسطو إلى النتيجة التى تقول : إن الذكر هو الإيجابى النشط الذى يبعث الحركة ، ويهب الحياة فى المادة ، أما الأنثى فيقتصر دورها على تقديم سائل الطمث، ومن ثم فهى تمثل الجانب السلبى المتقبل فحسب . ولهذا فإنه عندما ينتقل إلى عالم السياسة ، على نحو ما سنرى فى الفصل القادم ، سيجعل الذكر إيجابياً أيضاً ، فهو الذى يحكم ويحفظ ، ويدير شئون السياسة فى الدولة ، وفى المنزل ، وهو الذى يأمر ، أما الأنثى فليس عليها سوى السمع والطاعة . ولهذا سيكون من المنطقى فى عالم الأخلاق أن يصبح الصمت هو زينة المرأة وتاجها ، لكنه ليس كذلك بالنسبة للرجل .

٥ ـ إننا لكى نعرف أى شىء عن المرأة : ضعفها ، وضعها ، دورها ، وظيفتها ، مركزها .. إلخ . فلا بد أن نعرف « طبيعتها » . ومن هنا كان لبيولوجيا أرسطو علاقة واضحة بآرائه السياسية والأخلاقية تجاه النساء ، وليس فى استطاعة المرأة أن تعرف شيئاً عن « طبيعتها » ، لأن عقلها لا يستوعب هذه الدراسة ، وليس لديها « قدرة » على تحمل المسائل النظرية أو فهمها . ولهذا فإن فضيلة الرجل الأساسية هى أن يسيطر على المرأة ويجبرها على طاعته ، أما الرجل الى يعامل المرأة على قدم المساواة ويتصور أنها مساوية له أو أنها « ند » فإنه يسلك ، فى الواقع سلوكاً مخجلاً ومشيناً .

٦ ـ الخلود لا يكون إلا للكلى ، فمن المستحيل على الجزئى أو الفردى أن يشارك فى الإلهى والأزلى (٤١٥ – ب) . وتلك هى الغاية من التوالد ، فما دامت الكائنات الحية لا تشارك فى الخلود كأفراد ، فإنها تسعى لإنجاب أفراد شبيهة لها تصبح أعضاء فى نوع خالد (٤١٥ – ب) . وما دام الأب هو الذى يهب « الروح » فضلاً عن أن الوظيفة الأساسية الكاملة للتوالد هى إنجاب طفل يشبه الأب ، وليس طفلاً يشبه الأم ، فإن أى انحراف عن هذا الخط هو قصور واضح (٧٦٧ – ب) . والواقع أن الانحراف الأول هو أن يصبح النسل أنثى بدلاً من أن يكون ذكراً (٧٦٧ – ب المجلد الأول من المؤلفات الكاملة ص ١١٨٧ – ١١٨٨) .

٧ ـ هنا يصل أرسطو إلى مفارقة غريبة هى أنه على الرغم من أن السوك الطبيعى للحيوان هو ، كما قلنا ، أن ينجب فرداً آخر يشبهه حتى يشارك فى الخلود ، فإن الوظيفة الكاملة للأنثى هى أن تنجب فرداً ذكراً يشبه الأب – فما معنى ذلك ؟ معناه أن إنجاب الذكور للذكور هو علامة تميزه وتفوقه كما هى الحال عند « هرقل » البطل الأسطورى

الشهير الذى كان من علامات تميزه وتفوقه أن أنجب اثنين وسبعين ولداً وأنثى واحدة (٥٨٥ - ب والمجد الأول ص ٩١٨) أما إنجاب الإناث للإناث فليس علامة تفوق ، وإنما هو قصور سببه عدم المزج الصحيح لدماء الطمث وعدم إعداده إعداداً مناسباً لاستقبال الصورة - وهكذا يصل أرسطو إلى نتيجة حاسمة هى أن وظيفة المرأة الكاملة هى أن تخلق الظروف المناسبة التى ينتشر فيها عنصر الذكر والتى تمكنه من أن ينعم بالخلود [١] مما جعل ليندا لانغ Lynda Lange تقول بحق : « إن النظرة التى ينبغى احتقارها هى هذه **النظرية القضيبية للعالم** »[٢]، أعنى النظرة التى تدمج كلمتى « ذكر » و « بشر » لتجعلهما مترادفين ، وهى نظرة لا تزال حية معروفة [٣] ، ولا شك أن دراستنا لتاريخ الفكر تفيد دائماً فى السيطرة على هذه النظرة وتفنيدها [٤] .

٨ ـ لابد أن نشير سريعاً إلى أن المعلم الأول وقع فى كثير من الأخطاء البيولوجية حتى قيل : إن مؤلفات أرسطو فى البيولوجيا غريبة ، فهى خليط مشوّه من الشائعات - والأقاويل ، والملاحظات الناقصة . والتفكير بالتمنى ، والسذاجة ، وسرعة التصديق . [٥] فما هى الشواهد التى أقنعت أرسطو بأن السائل المنوى للشباب ، فيما بين سن البلوغ وسن العشرين خال من التخصيب .. ؟ وأن الشباب من الرجال والنساء ينسلون ذرية ناقصة وأصغر من الحجم العادى ؟

وأنه إذا حدث الحيض ثلاث مرات فى الشهر دلّ ذلك على أعراض للرغبة الجامحة المفرطة ؟. [٦]

---

(١)امتدت فكرة أرسطو حتى العصور الحديثة حتى أن اعجاب نيتشه Nietzsche (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) بالحضارة اليونانية يعد انعكاساً لها ، ومن هنا جاء قوله : « ليس للمرأة رسالة أخرى سوى إنجاب طفل جميل قوى تعيش فيه شخصية الأب على نحو لا ينقطع بقدر الإمكان » « أمور إنسانية ، إلى أقصى حد » ص ٢٣٨ .

(٢) كانت هذه النظرة التى سادت عصر أرسطو بصفة خاصة حتى أطلقت إيفاكيولز Eva Keuls على العصر الكلاسيكى فى أثينا اسم « عهد القضيب » انظر كتابها Ea Keuls " The Reign of the Phallus " University of California Pross, 1993 .

(٣) لا تزال العامة فى بلادنا تجعلهما مترادفين ، بل قد تجعل من كلمات ذكر ، وقضيب ، وبشر ـ مترادفات !

(٤) Lynda Lange, Op . Cit . p. 12.

(٥) A Philosophical Dictionary of Biolgoy p. 27 ed . by P. B. Medawar, Weiden Feld, London 1984 .

(٦) Ibed, p. a7 .

وفضلاً عن ذلك كله ، فقد كان أرسطو يؤمن إيماناً راسخاً بالقاعدة السبعية التى تقول إن كل شيء يسير في سبعة أدوار : فللإنسان سبعة أعمار ، ولكل منها سبعة أعوام [١] . ومن ثم فمن يريد أن يفهم الطبيعة فهماً جيداً فلا بد أن يتحقق من أن السائل المنوى سيكون ضعيفاً فى الفترة من سن ١٤ (دورتين) إلى سن ٢١ (ثلاث دورات) لأن الإخصاب فى هاتين الفترتين يتعارض مع القاعدة السبعية [٢].

ويلخص جورج سارتون ما وقع فيه أرسطو من أخطاء فى البيولوجيا فى ثلاثة أخطاء فادحة هى :

الخطأ الأول : أخطأ فى قوله : إن الذكر لا يمد الأنثى بشيء ملموس فى عملية التلقيح . وفى قوله : إن الحيوانات المنوية إنما تحدث الصورة فى دماء الحيض ، وهى مادة غير مشكّلة مؤداه أن السائل المنوى خِلْو إلا من روح لا مادة له . وطبيعى أن أرسطو لم يتبيّن وجود الحيوانات المنوية .

الخطأ الثانى : أضلّه بعض ما شاهده من أحوال الحيوانات المخصية ، فلم ينسب إلى الخصية وظيفتها الصحيحة .

الخطأ الثالث : خاص برأس الدودة الشريطية [٣]. وهو خطأ ربما يخرج عن موضوعنا . لكن من الأخطاء التى ترتبط بموضوعنا ، وهى كثيرة جداً ، قوله أن الصلع لا يصيب النساء ، ولا يكون الصبى أصلع الرأس ولا المرأة ، ولا أحد ممن يخصى (تاريخ الحيوان ٦١٨ – أ) وهو يستنتج من ذلك دونية النساء لأنهن أشبه بالأطفال الغلمان . وقوله : إن للنساء أسناناً أقل من الرجال (تاريخ الحيوان) (٥٠١ – ب) ولقد سخر منه برتراند راسل بقوله : إن أرسطو لم يكن من الممكن أن يرتكب أبداً مثل هذا الخطأ لو أنه طلب من زوجته أن تفتح فمها لحظة واحدةً ! . وقوله إن الأنثى هى ذكر بلا أعضاء جنسية أى بغير قضيب توالد (٧٢٨أ) فهى ذكر ممسوخ ومشوه (توالد الحيوان ٧٣٧–أ) وإن كان البعض يرى أن فى ذلك استباقاً لنظرية فرويد S. frend (١٨٥٦ – ١٩٣٩) – عن فقدان القضيب لدى المرأة[٤] !!.

---

(١) قارن ذلك بما تقوله العامة من أن لبعض الحيوانات ـ كالقط وغيره ـ سبعة أروح ! .

(٢). Philosophical Dictionary of Biology p. 28

(٣) جورج سارتون « تاريخ العلم » المجلد الثالث ص ٢٧٠ ترجمة لفيف من العلماء ـ دار المعارف بمصر .

(٤) Eva C. Keuls : " The Reign of Phallus : Sexual Politics in Ancient Athens" P . 145, University of California Press, 1993 .

الفصل الثانى

المرأة .... والسياسة

* جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى ، ومن ثَّم فتسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً .. !

أرسطو : السياسة ١٢٥٩ ـ أ

* الصمت هو تاج المرأة وزينتها ، لكنه ليس كذلك بالنسبة للرجل .

أرسطو : السياسة ١٢٦٠ ـ أ

تمهيـــد :

لابد أن نضع فى أذهاننا أن الفكر السياسى عن أرسطو يعكس كالمعتاد ، الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعتقدات الدينية التى سادت دولة المدينة اليونانية فى القرن الرابع قبل الميلاد . ومن هنا فقد ذهبت سوزان أوكن Susan Okin. إلى أننا : « لن نجد فيلسوفاً ينطبق عليه تعريف هيجل للفلسفة بأنها عصرها ملخصاً فى الفكر [1] ، حتى ولا هيجل نفسه – مثلما تنطبق على فلسفة أرسطو »[2] ولذلك يجب ألاّ نندهش عندما يذهب المعلم الأول إلى أن الرق نظام طبيعى ، أو عندما يضع نظرية كاملة لتبريره .

فقدكانت هذه هى وجهة النظر التى تؤمن بها الغالبية العظمى من المثقفين فى عصره. كذلك ينبغى علينا ألاّ نندهش عندما نراه يذهب إلى أن حياة الفلاح ، والصانع ، والتاجر، لا تتفق مع حياة المواطنين الأحرار فى المدينة – فتلك هى الطبقة المنتجة التى سبق أن استبعدها أفلاطون من المشاركة فى الحياة السياسية فى مدينته الفاضلة – وأطلق عليها اسم مجتمع الشهوة ، ووصف الحياة فى هذا المجتمع بأنها أقرب ما تكون إلى حياة الخنازير [3]. وتلك وجهة نظر أخرى تعبر عن معتقدات الغالبية العظمى من المنظِّرين السياسيين عند اليونان .

كذلك يبدى أرسطو استعلاء ، وميلاً متحيزاً ضد البرابرة « الأجانب » ، وهو فى ذلك إنما يعبرً عن المعتقد الذى كان سائداً فى المجتمع اليونانى ويعبر عن احتقاره لعاداتهم وتقاليدهم ، بل إنه يذهب صراحة إلى أنهم عبيد بالطبيعة !

وأخيرا فإن أرسطو يستبعد المرأة تماماً من ميدان الثقافة والسياسة والحياة الفكرية بصفة عامة ليجعل وظيفتها ، كما سبق أن رأينا فى السابق ، مقتصرة على الإنجاب . وهو ما عبرّ عنه ديموستين Demosthenes بقوله : « إننا نتخذ العاهرات من أجل اللذة .. وأما الزوجات فلكى يلدن لنا الأبناء الشرعيين » ... الخ [4] .

---

(١) عبارة هيجل التى تشير إليها الباحثة هى « إن كلاً منا هو ابن عصره ربيب زمانه ، وبالمثل يمكن أيضا أن نقول عن الفلسفة ، إنها عصرها ملخصاً فى الفكر » .

ص ٨٨ من « أصول فلسفة الحق » ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام انظر المجلد الأول من الأعمال الكاملة لهيجل ، الناشر مكتبة مدبولى ـ القاهرة .

Susan M. Okin, Women in Western Political Philosphy p. 73 . (٢).

(٣) د. إمام عبد الفتاح إمام « أفلاطون .. والمرأة » ص ٥٢ العدد الأول فى سلسلة الفيلسوف . والمرأة ـ مكتبة مدبولى القاهرة .

(٤) « أفلاطون .. والمرأة » ص ٢٨ وانظر إيفاكيولز « عصر القضيب » ص ٩٩ .

وليس باستطاعة المرء إزاء هذه المعتقدات ، أن يقول إن أرسطو قد تجاوز الرأى الشائع فى عصره . بل يمكن القول : إن مؤلفاته تقدم تبريراً عقلياً لأحكام فلسفية مبتسرة تغلغلت فى أعماق المجتمع اليونانى . ولهذا نراه يؤمن بالتفرقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأعلى والأدنى ، ويصف هذه التفرقة بأنها جزء من النظام الطبيعى للأشياء . كما أنه يرتب الموجودات ترتيباً تصاعدياً هيراركياً طبقاً لملكات النفس ، فالنبات موجود فى خدمة الحيوان ، والحيوان بدوره فى خدمة الإنسان . ومن ثم يمكن إقامة تمييز مماثل بين الحاكم والمحكوم داخل الجنس البشرى ذاته : أولاً ـ بين الذكر والأنثى . وثانياً ـ بين الرجل الراشد والطفل . وثالثاً ـ بين الحر والعبد [١] .

أولا : نشأة الدولة :

السياسة عند أرسطو هى علم السعادة الاجتماعية ، كما أن الأخلاق هى علم السعادة الفردية . والسعادة الاجتماعية هى أن ينعم الإنسان بحياة فاضلة ، ولا تتحقق هذه الحياة الفاضلة إلا فى ظل القانون ، والعدالة ، والمساواة [٢] ، وهو ما يتطلب وجود الدولة التى هى التجمع الأكمل الذى يتضمن سائر التجمعات .

يبدأ أرسطو بدراسة أنواع التجمع البشرى ، فيرى أن الأسرة هى التجمع الطبيعى الأول وهو يستشهد على ذلك بما يقول الشاعر هزيود :

عليك أولاً أن تبدأ بإعداد المنزل .

ثم بإحضار المرأة .

وأخيراً الثور الذى يجر المحراث .. [٣]

وإذا كان الثور يقوم فى خدمة الفقراء مقام العبيد ، فإن أرسطو يستخلص من قول الشاعر عناصر تكوين الأسرة : الرجل وعبيده ، ثم الزوج والزوجة ، وأخيراً الأبناء .

---

(١) G.E.R. Lioyd : Aristotle, The Growth and Structure of Historical Thought, p. 264. Cambridge University press, 1968 .

(٢) سوف يتضح فيما بعد أن العدالة عند أرسطو التى اعتبرها « ضرورة اجتماعية » ، بل هى ضرورة الاجتماع السياسى ، لا يمكن أن توجد إلا بين المتساويين أو الانداد أو النظراء أى بين أولئك الذين يشاركون على قدم المساواة فى أن يحكموا وأن يحكموا كمواطنين رفقاء ، وفى هذه الحالة سيكون من الظلم أن يعامل هؤلاء الأنداد بأية طريقة أخرى غير طريق المساواة .

(٣) Aristotle, Politics, 1252-B (Vol.I. p 1987) .

ولكل عنصر علاقة خاصة به . ويهمنا الآن أن نبيّن أن الأسرة هى أول صور التجمع البشرى ، وهى تجمع طبيعى لتحقيق إشباع الحاجات اليومية المتكررة ، ومن مجموعة الأسر يظهر الشكل الثانى للتجمع ، وهو القرية التى يرتبط أعضاؤها برباط الجالية الواحدة ، حتى أطلق البعض على أعضائها اسم الذين يرضعون من لبن واحد ، والأبناء وأبناء الأبناء [١] .

غير أن التجمع النهائى الكامل الذى يتألف من عدد من القرى هو المدينة ، أى الدولة – وهو تجمع يمكن أن يقال عنه : إنه وصل إلى أعلى درجة من الاكتفاء الذاتى الكامل – فالدولة هى الغاية أو القمة التى تتحرك نحوها الجماعات السابقة : وطبيعة الأشياء أن تحقق غايتها أو قمتها ، لأن كل شىء عندما يكتمل نموه نسميه طبيعية هذا الشىء [٢] فالساق والأوراق ، والأفرع فى شجرة البرتقال تظهر قبل ظهور الثمرة ، لكن البرتقال هو الغاية وهو القمة ، وعندما يكتمل نموه تتسمى الشجرة باسمه . كذلك الدولة هى الغاية والهدف النهائى من التجمع البشرى ، وإذا كانت تظهر متأخرة من حيث الزمان عن الأسرة والقرية فإن لها الأولوية ، لأنها غاية التجمعات السابقة .

ولهذا فإن أرسطو يبدأ فى الكتاب الأول من السياسة بتعريف الدولة بأنها ضرب من التجمع البشرى ، وإذا كان كل تجمع يستهدف خيراً ما ، فإننا نستطيع أن نقول : إن الدولة التى تحوى فى جوفها كل تجمع آخر ، تستهدف جميع الخيرات [٣] . وقبل أن يواصل شرح العناصر التى تتألف منها الدولة ، يتوقف منذ البداية ، لينبهنا إلى أن التسلسل الهرمى الذى صادفناه من قبل منطبقاً على موجودات الطبيعة ، ثم رأيناه بشىء من التفصيل فى الفصل السابق فى ميدان البيولوجيا ، هذا التسلسل يبدو واضحاً فى هذا الضرب من التجمع البشرى الذى هو الدولة ، وكما سبق أن رأينا فلا مساواة فى الطبيعة ، بل مراتب دونها مراتب ويعلوها أخرى ، وتلك هى الحال هنا أيضاً ، وبالتالى يخطىء مَنْ يظن أن الناس سواسية [٤] وأنه يتساوى فى ذلك رجل الدولة ، والملك ، ورب البيت ، والسيد والعبد والمرأة والرجل .. وهم فى ذلك واهمون ، لأنهم يتصورون أن كلاً من هؤلاء الأشخاص لا

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid, 1252-B.

(٣) Ibid, 1252- (Vol.2 p. 1985).

(٤) كان أرسطو يعتقد أن هذه هى نظرية أفلاطون ـ انظر تعليق أرنست باركر فى ترجمته لكتاب « السياسة» ص ١ حاشية ٢ .

يختلف الواحد منهم عن الآخر كيفاً ، بل فى عدد الأشخاص الذين يتعامل معهم ، فإذا تعامل مع رجل واحد أو قلة من الأفراد فهو « سيد » ، أما مَنْ يتعامل مع عدد أكبر فهو رب أسرة . وأما من يتعامل مع جمع غفير من الناس فهو سياسى أو رجل دولة أو ملك - وتلك نظرية لا يمكن أن تكون صحيحة ، إذ أن بين هؤلاء الأشخاص فروقاً جوهرية (١) كما سبق أن أشرنا.

معنى هذا أن أرسطو يعلن بصراحة ووضوح منذ البداية أنه **لا توجد مساواة** بل توجد **اختلافات جوهرية** أو نوعية أو اختلافات طبيعية كما سنرى بعد قليل ، فلا يكون السيد سيداً لعلاقته بفرد أو عدد قليل من الأفراد ، وإنما هو سيد بالطبيعة ، فهى التى تحدد من هم السادة ومن العبيد ، ومن هم الحكام ، ومن المحكومون ولا رادِ لقضائها ! ونفس التسلسل الهرمى ، أو الهيراركية الكونية ، الذى يسود موجودات الطبيعة قائم أيضاً بين أفراد المجتمع البشرى ، فهناك درجات ومراتب من البشر يعلو بعضها بعضاً على نحو ما هو موجود فى ظواهر الطبيعة . وليست هذه المراتب أو الدرجات من صنع البشر أو العادات أو العرف - وإنما هى من صنع الطبيعة التى لا تفعل شيئاً باطلاً أو عبثاً . ولنبدأ من البداية : ليست المراتب أو الدرجات موجودة فى المجتمع البشرى فحسب ، وإنما هى قائمة فى صميم الجنس البشرى نفسه كما سبق أن أشرنا سريعاً فى الفصل الثانى من الباب الأول - فهناك هيراركية بين الشعوب ذاتها ، وليس فقط داخل الشعب الواحد - لأن الطبيعة تميل إلى إيجاد مثل هذا التمايز بين البشر بأن تجعل بعضهم قليلى الذكاء أقوياء البنية ، وبعضهم أكفاء للحياة السياسية ، فى حين لا يعرف الآخرون شيئاً عن التنظيمات السياسية ، وليس فى استطاعتهم أن يعرفوا ! ومعنى هذا أن مِنَ الناس مَنْ هم أحرار بالطبيعة ، ومَنْ هم عبيد بالطبيعة أيضاً (٢) فشعوب الشمال الجليدى وأوربا شجعان ، لهذا لا يكدر عليهم أحد صفو

---

(١) Aristotle, Politics, 1257 - A (Vol.2 p. 1986) .

(٢) يقسم أرسطو شعوب العالم إلى ثلاثة أنواع هى :

أ - شعب المناطق الباردة فى أوربا .

ب - شعب آسيا .

جـ - شعب اليونان .

الأول : ذو روح عالية فهم شجعان ، لكن ينقصهم الذكاء والمهارة ، وهذا هو السبب فى أنهم احتفظوا بحريتهم إلى حد ما ، لكنهم لم يطوروا أى نظام سياسى ، ولم يظهروا أى قدرة على حكم الآخرين .

الثانى : لديه الذكاء والمهارة لكنه ضعيف الروح خال من الشجاعة ، ولهذا رزح تحت نير العبودية ولا فارق عندهم بين رجل وعبد ولا امرأة وأمة ، لأنهم جميعاً عبيد . =

حريتهم ، لكنهم عاطلون عن الذكاء والمهارة ، والأنظمة السياسية الصالحة . لهذا كانوا عاجزين عن التسلط على جيرانهم ، أما الشرقيون فيمتازون بالذكاء والمهارة ، لكنهم خلو من الشجاعة لها فهم مغلوبون على أمرهم ، مستعبدون من غيرهم إلى الأبد ، وأما الشعب اليونانى فيجمع بين الميزتين : الشجاعة والذكاء ، كما أن بلده متوسط الموقع ، ولهذا فهو يحتفظ بالحرية ، ولو أتيحت له الوحدة لتسلط على الجميع[١] . ومعنى ذلك كله أن اليونانى بطبيعته سيد وحر وأن الأجنبى (أو البربرى) بالطبيعة أيضاً عبد له ، ولكن لا يجوز لليونانى أن يستعبد أخاه اليونانى بحال – وتلك فى الواقع هى نفسها فكرة الشعب المختار ظنها أرسطو أولية كلية ضرورية ، ولم يستطع أن يسمو فوق عرف عصره[٢] .

وهكذا ينقل أرسطو أفكاره الميتافيزيقية إلى السياسة ، كما نقلها من قبل إلى البيولوجيا فهو هنا يؤمن بوجود مراتب ودرجات بين الشعوب (أو هيراركية بين الأجناس) فمنها ما هو أعلى كالأغريق وما هو ادنى كالبرابرة الذين هم غير اليونانيين بصفة عامة . ولهذا نراه يكتب للإسكندر الأكبر عندما غزا الشرق رسالة ينصحه فيها أن يفرق فى المعاملة بين اليونانيين والشرقيين ، بحيث يعامل اليونانيين بوصفه قائداً لهم ، ومع البرابرة (والشرقيين) بوصفه سيداً عليهم ، لأن البرابرة يخضعون للإغريق بالطبيعة[٣] .

لا مساواة إذن بين الأجناس والشعوب فهناك الأعلى والأدنى ، وهناك الحاكم والمحكوم وهى خصائص حددتها الطبيعة التى لا تفعل شيئاً « باطلاً » ، فهى التى جعلت الجسد فى بعض الناس أقوى بحيث يصلحون للأمور الوضيعة فى الحياة ، وجعلت من بعضهم الآخر مستقيم الجسد ، ممشوق القوام ليس لديه القدرة على الإنحناء لحمل الأثقال ، ومن ثم لا يقوى على العمل البدنى ، وإن كان يصلح لأغراض أخرى أسمى[٤] ... الأول هو العبد بالطبيعة ، والثانى هو الرجل الحر بالطبيعة أيضاً : .... وإذا ما اختلف الناس بعضهم عن

= **الثالث** : الشعب اليونانى الذى يجمع بين الخاصتين معاً : بين الذكاء والروح العالية ، وبين المهارة والشجاعة ، وهى صفات جعلته حراً على الدوام ، ومكنته من تطوير نظام سياسى ممتاز ، وقدرة على حكم الشعوب الأخرى لو حقق لنفسه الوحدة السياسية ، إلا أن هذه الفروق الموجودة بين اليونانيين وغيرهم من الشعوب موجودة داخل الشعب اليونانى » انظر كتاب السياسة ١٣٢٧ ـ ب (ومجموعة المؤلفات الكاملة ـ المجلد الثانى ص ٢١٠٧) .

(١) Aristotle, Politics, 1327-B (Vol. 2 p. 2107).

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ دار القلم بيروت عام ١٩٧٧ .

(٣) Aristotle, Politics Trans. by E. Barker PXVIII.

(٤) Ibid, 1255-A (Vol. 2 p 1991).

بعض فى شكل الجسد ، كما تختلف تماثيل الآلهة (عن أشكال البشر) فمن الواضح أننا سنتفق جميعاً على أن الطبقة الدنيا ينبغى أن تكون عبيداً للطبقة العليا . وهكذا يتضح أن بعض الناس أحرار بالطبيعة ، وأن بعضهم الآخر عبيد بالطبيعة – وعموماً فحالة الرق نافعة وعادلة للاثنين معاً [١] .

وإذا كان مبدأ اللامساواة والتسلسل الهرمى يصدقان على موجوات الطبيعة بأسرها من ناحية ، ثم يصدقان على الجنس البشرى كله من ناحية أخرى ، فإنهما يصدقان كذلك على المجتمع الواحد من ناحية ثالثة . فالمجتمع اليونانى على سبيل المثال – وهو أرقى المجتمعات كلها فى نظر أرسطو – لا يتألف من مواطنين متساويين لهم نفس الحقوق ، وعليهم نفس الواجبات ، وإنما يتألف من الرجل اليونانى الحر ، ثم المــرأة اليونانية .. وأخيراً الرقيق .

أما الرجل اليونانى الحر فهو الإنسان على الأصالة عند أرسطو ، وإذا كان المعلم الاول يستخدم طوال حديثه عن الإنسان وطبيعته ، كما سبق أن ذكرنا كلمة Anthropos وهى يونانية تعنى « الموجود البشرى » فإننا سرعان ما نكتشف أنه يطلقها على فئة ضئيلة للغاية من نوع واحد من الجنس البشرى هى « الرجل اليونانى الحر » . والتعريف الأرسطى الشهير للإنسان بأنه « حيوان عاقل » لا يصدق إلا على هذا الرجل اليونانى الحر . وحديثه عن الفضائل الإنسانية ، والخير الأقصى ، وسعادة الإنسان .. الخ ليس سوى حديث عن الرجل اليونانى الحر . كذلك حديثه عن الديمقراطية ، وأنظمة الحكم ، والعدالة الاجتماعية ، والمساواة ، والحاكم والمحكوم ، والصداقة والأنداد أو النظراء ... إلخ ذلك كله إنما يرتبط بنظرته إلى « الرجل اليونانى الحر » .

أما المرأة فهى أقل من حيث العقل والذكاء (حيث يغلب عليها الجانب اللا عقلى) كما سنرى بعد قليل ، وهى أدنى من حيث المرتبة والمكانة ، معزولة تماماً عن ميدان السياسة ومستبعدة من الميدان الثقافى بصفة عامة . كما أنها غير قادرة على ممارسة فضائل الرجل . ولهذا كان لها فى مجال الأخلاق فضائلها الخاصة ، وهى فى مرتبة وسط بين الرجل اليونانى الحر وبين العبد الرقيق ! [٢] .

---

(١) Ibid .

(٢) حقوق النساء فى المجتمع الأثينى يمكن أن نلخصها فى كلمة واحدة : لم يكن لهن حقوق ! وإذا كانت هناك أية مطالب فمن خلال الأوصياء عليهن . ولقد روى زينوفون Xenophon مناقشة دارت بين إيزخوماخوس Ischomechus وسقراط يشبّه فيها الأول الزوجات بالعبيد والخيل =

أما الرقيق فقد وضع أرسطو نظرية متكاملة يبرهن فيها على أن وضعهم « طبيعى » فقد خلقوا رقيقاً ، بل إن فى وضعهم هذا نفعاً لهم وللسادة فى آن معاً ، غير أن ذلك كله يحتاج إلى شىء من التفصيل ، فلنقف عند الأسرة التى هى التجمع الطبيعى الأول ، والخلية الأولى التى تتألف القرية من عدد منها ، ثم تتطور بعد ذلك إلى دولة .

ثانياً : الأسرة .. ووضع المرأة :

كان أفلاطون يدعو إلى إلغاء الأسرة فى طبقة الحراس ليؤكد « الدولة الواحدة » فلا أب ، ولا ابن ، ولا زوج ، ولا زوجة ، لأن الجميع يشكلون أسرة واحدة كبيرة ، ومن هنا لم يكن للمرأة فى جمهوريته وظيفة محددة ، فأحالها إلى رجل يقاتل ، ويصارع ، ويتلقى تدريبات عنيفة ... الخ . غير أن أرسطو رفض هذه النظرة التى عرضها أفلاطون على لسان سقراط فى الجمهورية – جملة وتفصيلاً ، وهو بصفة خاصة يوجه إليها ثلاثة اعتراضات أساسية :

١ ـ الوحدة التى تحدث عنها سقراط ، وظن أن فيها الخير الأقصى للمدينة والتى أدت إلى إلغاء الأسرة الخاصة لكى تضع الحراس فى أسرة كبيرة – سوف تؤدى إلى تحطيم المدينة. يقول أرسطو فى الكتاب الثانى من السياسة : المبدأ الذى ينطلق منه سقراط هو أن هدف الدولة تحقيق أعظم قدر من الوحدة للدولة ككل ، لأن ذلك هو الخير الأقصى ، لكن من الواضح أن الدولة التى تستمر فى طريق الوحدة فتتحد ، وتتحد ، سوف ينتهى بها المطاف إلى أن تتوقف عن أن تكون دولة على الإطلاق . فالدولة بطبيعتها تجمع من الأفراد أعنى أنها تتضمن بداخلها مجموعة كبيرة من الأعضاء ، ولو أنها زادت فى وحدتها فسوف تتحول فى النهاية إلى أسرة بدلاً من الدولة . ثم تتحول بعد ذلك لتصبح فرداً بدلاً من أن تكون أسرة . فنحن جميعاً نعرف أن الأسرة أشد وحدة من الدولة ، والفرد أشد وحدة من الأسرة . وينتج عن ذلك أننا حتى لو استطعنا تحقيق الغاية التى كان ينشدها أفلاطون ، فإنه ينبغى علينا ألاّ نفعل ، لأنها ستؤدى إلى تدمير الدولة بما هى كذلك [١] .

= بينما يشبههن الثانى بالأغنام والخيل .. والواقع أن النساء لم يكُنَّ فى رأى القانون أشخاصاً أكثر منهن عبيداً . فهن يقضين حياتهن فى الانتقال من وصاية رجل إلى وصاية رجل آخر ، ويمكن أن يكون الوصى : الأب أو الزوج أو الابن أو الأخ أو قريب ذكر من بعيد . وهن كما عرف أرسطو العبد أداة حية يملكها الرجل ـ عصر القضيب ص ١٠٢ . Eva Keuls The Reign of Phallus p. 102 .

(١) Aristotle, Politics, 1961 (Vol.2 p 2001) .

٢ ـ هناك اعتراض أبعد ، فقد ألغى أفلاطون الأسرة نتيجة لإلغاء الملكية ، لأنه خشى الخلاف بين طبقة الحراس على ملكية الاشياء ، وأن يقول كل واحد منهم هذا ملكى ، أو ليس ملكى وانتهى إلى ضرورة إشراكهم فى كل شىء ، غير أن الملكية الخاصة ليست سبباً للاختلاف والمنازعات ما دمنا لا نسمح بازديادها إلى حد غير مقبول ، لأن الملكية الفردية يمكن أن تكون حافزاً لكل شخص على زيادة الإنتاج .

٣ ـ أن التضحية بالأسرة والأبناء ستجعلنا نصطدم بعقبات كبرى بالنسبة لشيوع الزوجات والأطفال : تبدأ من الإهانات غير المعتمدة يوجهها الابن إلى أبيه دون أن يدرى لأن الأب أب للجميع ، وليس لشخص معين ، وما دامت الصلات مجهولة فقد نصطدم بجرائم قتل الآباء لابنائهم ، أو الابن لأمه ، وكذلك قتل الأشقاء ، ونكاح المحارم ... إلخ(١) وهكذا تضيع العلاقات الطبيعية ، والعواطف بين البشر . الأسرة والملكية إذن ، صادرتان عن الطبيعة لا عن العادات والتقاليد أو الاوضاع والأعراف الاجتماعية ، فالغاؤها معارض لميل الطبيعة ، ولخير الدولة جميعاً ، ومن المستحيل أن يحدث ذلك .

ومهما يكن من قوة أو ضعف حجج أرسطو ضد نظرية أفلاطون السياسية ، فقد تصور المعلم الأول أنه أجهز على فلسفة أستاذه فى الدولة ، وواصل طرح نظريته الخاصة بالأسرة . فهو يعجب أشد العجب أن يستمد أفلاطون تشبيهاته من عالم الحيوان (ولا سيما من إناث الكلاب) ليبرهن على أن النساء ينبغى عليهن أن يكلفن بنفس مهام الرجال . إن أنثى الحيوان ليس لديها كالمرأة واجبات منزلية .. (٢) وما دامت هناك أسرة فإن أعمال المنزل هى الأساس الطبيعى والضرورى للحياة الاجتماعية ، وتلك هى المهمة الرئيسية للمرأة .

وتتألف الأسرة عند أرسطومن الزوج والزوجة والأبناء ثم العبيد الذين يعتبرهم آلة الحياة مهمتهم القيام بالأعمال التى لا يليق بالرجل الحر القيام بها ، والعلاقة بينهما هى علاقة السيد والعبد . ثم هناك ما يسمى بالرابطة الزوجية . وأخيراً ما يسمى بالعلاقة الأبوية .

---

(١) Aristotle, 1962 - A (Vol.2, p. 2002) .

(٢) Ibid, 1264-A (Vol. 2 p. 2006)

ثالثاً : الرجل ومركزه فى الأسرة :

- علاقة السيد .. والعبد

الرجل هو رأس الأسرة بماله من عقل راجح يستطيع تدبير شئون المنزل والمدينة معاً . وهو أشبه بربان السفينة الذى يستعين بأدوات جامدة كالدفة ،كما يستعين بالأحياء من البشر مثل قائد مقدمة السفينة . وكذلك يستعين رب الأسرة بمجموعة الأدوات الحية وهم العبيد فى كسب دخل الأسرة ، والعلاقة معهم هى علاقة السيد والعبد ، وتقوم على أساس القوة وهى بما هى كذلك لا علاقة لها بالعدالة ، ويعتقد أرسطو أنه ما دام هناك أشخاص هم «بالطبيعة عبيد» ، وأن وضعهم كرقيق أفضل لهم وأكثر عدلاً ، كانت علاقة السيد والعبيد مفيدة ونافعة لهما معا . والمسألة ليست صعبة سواء درسناها فلسفياً فى ضوء العقل أم درسناها تجريبياً على أساس الوقائع الفعلية الموجودة [١] .

وهكذا يقر أرسطو بصحة الوضع القائم للرق فى اليونان ، ويعطيه مبرراته العقلية عندما يقول : « إن هناك أنواعاً من الموجودات تتبين فيها منذ الميلاد التفرقة بين أشخاص هم بطبيعتهم حكام وقادة ، وبين أشخاص لديهم الاستعداد للخضوع ، ومن الخير لهم أن يسلموا أمر القيادة لغيرهم ، فإذا كان الإنسان يتألف من نفس وجسد ، فإن الأولى هى بطبيعتها الحاكم ، والثانى هو بطبيعته المحكوم »[٢] إذ نجد عند بعض الناس أن الجسد هو الذى يحكم النفس . أما القول بأن النفس تحكم البدن فتلك هى السلطة التى يمارسها السيد على العبد ، تماماً كما يحكم العقل الشهوة . وإذا كان من الطبيعى ، ومن المفيد للجسد ، أن تتحكم فيه النفس ، فكذلك من الطبيعى ، ومن المفيد للجانب الانفعالى أن يحكمه العقل [٣] والوضع المعكوس أو المضاد للوضع المعتاد للطبيعة « أن يحكم الجسد النفس » ، لهذا فإذا طغى الجسد عند شخص ما كان معنى ذلك أنه يقدم أفضل ما عنده عندما يقوم بأعمال يدوية أو جسدية ، وكان من الخير له أن يحكمه السيد لأنه عبد بالطبيعة ، مهيأ لأن يملكه شخص آخر وهو إذا كان يشارك فى العقل فإلى الحد الذى يفهم به الآخرين ، رغم أنه هو نفسه محروم من العقل بمعناه الكامل ، وهو فى ذلك يختلف عن الحيوانات التى لا عقل لها ولكنها تسلك بالغريزة [٤] .

(١) Aristotle, Politics, 1264 - A (Vol. 2 p. 1989) .

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid. 1254-B .

واستخدام العبيد قلما يختلف عن استخدام الحيوانات الأليفة ، فالعبيد والحيوانات الأليفة تسهم فى سد احتياجات السيد اليومية (١) .

رابعاً : الرجل .. والعلاقات الزوجية :

كما أن رب الأسرة سيد على عبيده ، فإنه كذلك زوج يرتبط برباط الزوجية مع زوجتـه وهو أب يرتبط بأبنائه بعلاقة الأبوة . وليست علاقته بهذين الطرفين (الزوجة والأبناء) هى نفسها العلاقة السابقة مع عبيده (أو علاقة السيد بالعبيد) ، فهو يرتبط بالزوجة بعلاقة رجل الدولة بالمواطنين . أما علاقته بأولاده فهى تشبه علاقة الملك برعاياه(٢) .

علينا أن نقف قليلاً عند موضوع الزواج لأهميته لنعرف رأى أرسطو فيه :

(١) الزواج :

كان الزواج فى المجتمع اليونانى ضرورة تفرضها العادات والتقاليد ، ولهذا كانت بعض المدن تسمح للنساء العجائز أن يوقعن أشد الأذى بالذين يصرون على عدم الزواج : وكانت العزوبة جريمة فى مدينة اسبرطة ، وكان العزاب يحرمون من حق الانتخاب ، ومن مشاهدة المواكب العامة .. الخ (٣) .

واستمر الزواج عند أرسطو ضرورة تفرضها الطبيعة أحياناً ، أو تمليها إرادة السماء أحياناً أخرى (٤) . ذلك لأن طبيعة النوع تجعله يميل إلى تخليد نفسه بأن ينسل أفراداً على صورته ، « مبدأ الطبيعة كما قلنا فى مكان آخر هو إنتاج الصور المتعددة من النوع مثلما تنتج أنواعاً مختلفة من الحيوان »(٥) فالطبيعة كما سبق أن رأينا فى الفصل السابق ، تعمل على استمرار الجنس البشرى فى صورة النوع ، ما دامت لا تستطيع أن تُبقى على الأفراد . وهكذا نجد أن طبيعة كل من الرجل والمرأة قد تمّ تنسيقها مقدماً بواسطة إرادة السماء لكى يعيشا حياة مشتركة (٦)ومن هنا تكون مسألة الحياة المشتركة بين الذكر والأنثى مسألة

---

(١) .Ibid

(٢) . (Ibid, 1259- A (Vol. 2 p. 1998

(٣) ول ديورانت « قصة الحضارة » مجلد ٦ ص ١٥٧ ترجمة محمد بدران .

(٤) . (Aristotle, Economics, 1344-A (Vol. 2 P. 1931

(٥) . Ibid

(٦) . Ibid

طبيعية ، إذ يستحيل أن تنسل الأنثى صوراً من نفس النوع دون معونة الذكر ، كذلك يستحيل على الذكر أن يقوم بهذا الدور بدون الأنثى ، وهكذا تنبثق ضرورة الحياة المشتركة بينهما التى أكدتها التقاليد ، وفرضتها العادات (١) .

وليس إنجاب الأبناء وسيلة لخدمة الطبيعة التى تحرص على إبقاء النوع فحسب ، وإنما هو أيضا وسيلة ذات نفع متبادل ، فالمتاعب التى يعانى منها الآباء أثناء تربيتهم لأطفال ضعاف سوف ترد إليهم عندما يصبحون فى سن الشيخوخة ، ويكونون هم أنفسهم ضعافاً لا حول لهم ولا قوة !

وإذا كان هناك تمايز فى قدرات الزوج والزوجة - بل تضاداً أحياناً - فإن ذلك يستهدف صالحهما معاً . وإذا كانت الطبيعة قد جعلت أحد الجنسين قوياً والآخر ضعيفاً ، فذلك ليصبح الأخير أكثر حذراً ، والأول أقدر على دفع الأذى ورد الهجمات بشجاعته ، كما أن الطرف الأقوى يستطيع أن يكسب ، وبالتالى يجلب من خارج المنزل الكثير من المتطلبات والمقتنيات التى تحتاجها الأسرة ، فى الوقت الذى يستطيع فيه الثانى أن يحافظ عليها ، وإلا لما كان هناك معنى للكسب والاقتناء ، ولقد جعلت الطبيعة ، وهى تنجز هذا الهدف ، أحد الجنسين قادراً على تحقيق حياة مستقرة داخل المنزل ، أما الثانى فقد جعلته قادراً على ممارسة أنشطته فى الخارج ، بل حتى فى علاقتهما بالنسل فقد جعلتهما الطبيعة يشتركان فى إنجاب الأطفال ، ويقوم كل منهما نحوهم بخدمة خاصة : المرأة بالتغذية والرجل بالتربية (٢) .

(٢) الزوج :

يعتقد أرسطو أن من الطبيعى أن يأمر الزوج ، وأن تطيع الزوجة « لأن جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى . ومن ثم فتسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً»(٣) والحق أن الأسباب التى يقدمها أرسطو لتبرير هذا التسلط منها ما يعتمد على الفارق فى القدرة العقلية بين الرجل والمرأة ، ومنها سيطرة الجانب العاقل من النفس على الجانب غير

(١) لاحظ أن الإشباع الجنسى ليس وارداً كعنصر من عناصر الزواج ، فذلك متروك للغوانى والغلمان ، أما الزوجة فهى للإنجاب ورعاية الأطفال فحسب . انظر ذلك بالتفصيل فى كتاب « عصر القضيب » ص ٩٩ ـ ١٠٠ ، لإيفا كيولز حيث تقول : « إن دور الزوجة أو وظيفتها الحساسة فى المجتمع الأثينى هى رعاية الأطفال أو الأبناء بمعنى أصح ، لأن الأب الاثينى لم يكن يهتم بالنبات » جـ ١٠ .

(٢). Aristotle, Economics, 1344-A (Vol. 2 p. 2131)

(٣). Aristotle, Politics, 1259-A

العاقل عند الرجل ، فى حين أن العكس هو الذى يحدث عادة عند المرأة ، وهو موضوع سوف نعود إليه بشيء من التفصيل عندما نتحدث عن اعتماد أرسطو على « طبيعة النفس » البشرية فى تنظيم شئون المجتمع فى نهاية هذا الفصل . ومنها ما يعتمد على جوانب بيولوجية كسلبية المرأة باعتبارها الهيولى ، وإيجابية الرجل بوصفه الصورة على نحو ما رأينا فى الفصل السابق . ومنها مسألة الفارق فى السن ، لأن أرسطو يساير تقاليد المجتمع الأثينى التى كانت تجعل الفتاة تتزوج من شاب فى ضعف سنها ، فلا يكون بينهما تقارب لا فى السن ، ولا فى النضج العقلى . غير أن أرسطو يقدم لنا تبريراً فلسفياً لهذا الوضع الغريب فيرى أن الطبيعة هى التى جعلت الأمر على هذا النحو ، فلنقف قليلاً عند تفسيره هذا .

(٣) سن الزواج :

لو تأملنا قليلاً رأى أرسطو فى الزواج من حيث السن المناسبة ، ومن حيث الهدف منه لكان فى ذلك إلقاء الكثير من الضوء على نظريته فى العلاقة الزوجية ولبدت هذه العلاقة طبيعية (١) .

يرى أرسطو أنه ينبغى على المشرّع أن يوجه عناية بالغة لموضوع الزواج ، فعليه أن يحدد السن التى يجب أن يقترن فيها المواطنون ، والصفات التى ينبغى توافرها فيهم قبل الزواج – لأننا نريد نسلاً مكتمل الصحة ، والزواج هو المؤسسة التى تزودنا بالأجسام الصحيحة ، فهو دار حضانة بالنسبة لدولتنا (٢) وليس سن الزواج أمراً يخضع لأمزجة الناس وأهوائهم ، بل لا بد أن يكون أمراً ضرورياً تفرضه الطبيعة التى لا تفعل شيئاً باطلاً ، وتسلك فى كل أفعالها مسلك الصانع الماهر . فالطبيعة هى التى تقوم بتحديد سن الزواج على النحو التالى: إذا كانت الطبيعة قد حددت سن السبعين كحد أقصى لقدرة الرجل على الإنجاب يصبح بعدها عقيماً ، وإذا كانت قد حددت نفس هذه القدرة عند المرأة بسن الخمسين ، فإنه ينبغى علينا أن نرجع إلى هذا الأصل ، ونحافظ على هذه النسبة نفسها فى تحديد أفضل سن للزواج ، أعنى أنه لا بد أن يكون الفارق بين سن الرجل وسن المرأة عند الزواج عشرين سنة كما حددت الطبيعة نفسها !

---

(١) كان الزواج المبكر هو السائد فى المجتمع الأثينى ، لأن الفتاة الصغيرة تكون طيعة ، ويسهل السيطرة عليها ، ولهذا كانت الفتيات يتزوجن فى سن الخامسة عشرة ، وقلّة من المفكرين المستنيرين هم الذين نصحوا أن يكون السن الطبيعى للزواج هو الثامنة عشرة ـ كما فعل أرسطو ، أما أفلاطون فرأى أن تكون سن العشرين كما هى الحال فى أسبرطة ، وأما سقراط فكان يقول : تزوج الفتاة الصغيرة التى لم تكن قد سمعت شيئاً أو رأت شيئا . « عصر القضيب » ص ١٠٤ .

(٢). Aristotle, Politics, 1259-A

ويذهب أرسطو إلى أنه لا يجوز أن نُبكّر فى زواج الأولاد ، لأن الزواج المبكر يؤدى إلى إنجاب ذرية غير مكتملة ، يكثر فيها إنجاب الإناث ، ويكون النسل فيها ضعيفاً ضئيل الحجم، وهو يرى أن علينا أن نأخذ عظة وعبرة ممن حولنا ، فجميع الشعوب التى دأبت على تزويج أبنائها وهم صغار السن ، أنجبوا ذرية غير مكتملة النمو ، ضامرة القوام ، قصيرة ! بل لقد ماتت الأمهات الصغيرات وهن يضعن حملهن . ومن هنا فعندما استفتى أهل كريت الآلهة فى كثرة عدد الوفيات فى نسائهن الشابات أجابت الآلهة : « لا تقطفوا الثمار قبل الأوان » وكانت الآلهة تعنى بهذا القول : « لا تزوجوا البنات قبل الأوان » أى فى سن مبكرة ، فلا علاقة بالطبع لما قالته بجنى ثمار المحاصيل الزراعية ، وإنما هى تشير إلى العدد الكبير من الوفيات الذى يسببه زواج البنات فى سن أصغر كثيراً مما ينبغى [١] .

غير أن الزواج المبكر لا يضر بالذرية فحسب ، بل يؤذى الشريكين أيضاً . فإذا كان من الطبيعى أن نقول : إن سن الزواج المناسب هو الذى يكون فيه الشريكان فى قمة قدرتهما على الإنجاب ، فإن الفتيات اللائى يبكرن بممارسة الجنس يُدْمِنَّ هذه العملية ، أما الفتيان فإنهم يصيبون البذور بالضرر قبل أن يكتمل نموها [٢] .

والسن المناسب للزواج فى رأى أرسطو هو أن تتزوج الفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها والفتى وهو فى السابعة والثلاثين ، لأن الجسم فى هذه السن يكون قد اكتمل نموه بالنسبة لكليهما ، كما ستكون لديهما القدرة على استقبال المولود الأول ورعايته[٣] .

وهكذا نجد أرسطو يُنظِّر الوضع الغريب القائم فى المجتمع اليونانى ، ويسعى إلى خلق «مبررات » تدعمه أمام « العقل » ، فهو يستحسن أن تتزوج الفتاة من شاب فى ضعف سنها فتكون هى فى الثامنة عشرة ويكون هو فى السابعة والثلاثين حتى لا يكون بينهما تقارب من أى نوع ، ومن هنا يكون له الحق ، ما دامت زوجته طفلة ، وهو أكثر نضجاً وأوفر خبرة ، أن يعاملها على أنها « قاصر» لم تنضج بعد ، فله الأمر وعليها الطاعة ، وكذلك عندما يسأل أرسطو نفسه : « أى فصول السنة يكون أنسب للزواج ؟ نراه يجيب

---

(١) Aristotle, Politics, 1335 - A (Vol. 2 p. 2118).

(2) ينبهنا سير أرنست إلى أننا عندما نقرأ نصوص أرسطو الخاصة بالزواج ، فإن علينا أن نتذكر أنه كان ابن طبيب ، وأنه تلقى تدريباً طبياً ، ويبدو أنه يقصد بكلمة البذور هنا الحيوانات المنوية ، وأنه لا يكتمل نموها إلا فى سن معينة ، وأن الفتى إذا انغمس فى إشباع جنسى قبل اكتمال نموها ، فسوف يضمر جسمه كله ، ولهذا اشترط زواج الفتى فى سن ٣٧ .

(٣) Aristotle, op. cit. 1335 - A.

بقوله من الأفضل أن نتابع الممارسات الموفقة التى لاحظها معظم الناس فى أيامنا هذه عندما حددوا فصل الشتاء (١)، ليكون هو الوقت المناسب لعقد القران ، وبداية تكوين أسرة جديدة من رجل وامرأة (٢) وفضلاً عن ذلك ينبغى على الزوجين أن يستمعا إلى نصائح الأطباء ، ودروس الفلاسفة الطبيعيين حول إنجاب الأبناء للمجتمع ، إذ يمكن للأطباء أن يقولوا لهما كل ما يحتاجان لمعرفته حول بدنهما ، كما أن الفلاسفة الطبيعيين يستطيعون تحديد الرياح المناسبة ، وهم على سبيل المثال يفضلون الرياح الشمالية على الرياح الجنوبية(٣) .

ثم يبدأ أرسطو فى تقديم مجموعة من النصائح للأمهات الحوامل فينبغى عليهن ، مثلاً ، العناية بأجسادهن فلا يستسلمن للرخاوة والكسل ، وأن يكتفين بالغذاء الخفيف . وهذا أمر يسهل على المشرّع أن يحققه إذا فرض عليهن أن يسرن كل يوم سيراً معتدلاً لأغراض العبادة ، فيقمن بزيارة معابد الآلهة آرتيمس Artemis التى ترعى شئون الولادة . أما عقولهن فهى بخلاف أجسادهن ، ينبغى اعفاؤها من أى جهد ، إذ من الواضح أن الأجنة تتأثر وهى فى رحم الأم ، كما تتأثر النباتات بتربة الأرض (٤) .

ويتفق أرسطو مع أستاذه أفلاطون فى أمر الأطفال المرضى والمشوّهين ، إذ يجب فرز الأطفال لحظة ولادتهم لنعرف أيهم ينبغى العناية به وتربيته ، على أن يمنع بقانون تقديم أية عناية لأولئك الذين يولدون مشّوهى الخلقة ، بل يطرحون فى العراء لوحوش البّرية (٥) كما لا بد من سن قانون فى جميع المدن يحدد النسل ، ويمنع زيادته حتى لا يتعرض الأطفال

---

(١) كان يوجد عند الاثينيين شهر يطلقون عليه اسم « شهر الزواج » ويبدأ من منتصف ديسمبر إلى منتصف يناير تقريبا ! .

(٢) Aristotle, Politics, 1335 - A (Vol. 2 p. 2118).

(٣) Ibid.

(٤) لاشك أن ملاحظة أرسطو سليمة من حيث أن الجنين يتأثر بأجواء أمه الصحية سواء أحوالها النفسية أو البدنية ـ ولقد كان الفيلسوف الإنجليزى « توماس هوبز (١٥٨١ ـ ١٦٧٩) Thomas Hobbes يرد خوفه الدائم إلى أن أمه وضعته قبل موعده الطبيعى لشدة خوفها عندما اقترب الأسطول الأسبانى « الأرمادا Armada من شواطئ إنجلترا ، يقول فى سيرته الذاتية : لقد وضعت أمى توأماً مرة واحدة « أنا والخوف » . (قارن كتابنا توماس هوبز ص ٤٥ دار التنوير بيروت ١٩٨٥) ، ولكن النصيحة التى يقدمها أرسطو بأن يظل عقل الأم عاطلاً عن العمل هى نصيحة بالغة الغرابة ! ومن الواضح كما يقول أرنست باركر : إن أرسطو يؤمن هنا بنظرية مادية فيزيقية تماماً عن المرأة ، فقد كان العالم اليونانى ذكورياً يريد من الأم أن تكون كالأرض التى تنمو فيها البذرة ـ صبورة لا تشكو ولا تتذمر ، وأيضاً لا تفكر .

(٥) كان طرح الأطفال فى العراء ولاسيما فوق قمم الجبال ، أمراً مألوفاً عند اليونان . وكثيراً ما كانت بطلة إحدى الروايات أو المسرحيات الإغريقية شخصية لقيطة عثر عليها بهذه الطريقة . ذلك =

للموت طرحاً فى العراء لمجرد المحافظة على عدد السكان عند حد معين . ولهذا يقترح أرسطو أن نحدد حجم الأسرة ثم نلجأ إلى الإجهاض قبل أن تدب الحياة فى الجنين أو ينمو فيه الإحساس . وإذا تساءلنا أيكون الإجهاض صواباً أم خطأ ، فإن الجواب يعتمد على وجود الحياة فى الجنين ، وظهور الإحساس عنده ، أو أن هذه الأمور لم تبدأ بعد (١) ..

وإذا كنا فى البداية التى يبدأ عندها الفتى والفتاة فى تكوين أسرة وإقامة حياة زوجية فإنه يبقى علينا أن نحدد المدة التى يظل فيها هذا الزواج يخدم الدولة بإنجاب الأطفال . ذلك لأن نسل الشيوخ ـ مثله مثل نسل الشباب المبكر – يكون غير تام التكوين ذهنياً وبدنياً ، ولهذا تأتى ذرية كبار السن ضعيفة البنية ، ومن ثم يمكن أن تقصر سنوات الإنجاب على فترة النضوج العقلى (٢) .

أما بالنسبة للزنى فلا بد أن يكون أمراً مخزياً مجلباً للعار عندما يكتشف بالنسبة للزوج أو الزوجة – فى أى وقت إبان الفترة التى يكونان فيها زوجين . أما إذا ارتكب فى الفترة المسموح فيها بإنجاب الاطفال ، فهو أمر ينبغى أن يعامل على أنه وصمة عار تستحق العقاب المناسب (٣) .

سوف نرجىء واجبات الزوجة وفضائلها إلى الفصل القادم ، الذى نتحدث فيه عن «المرأة والأخلاق» لكن علينا الآن أن نبحث عن الأسس التى أقام عليها أرسطو نظريته فى استبعاد النساء من ميدان السياسة ، وقصر نشاطهن على المنزل وحده ، أو ما يعتبره خضوع المرأة الطبيعى للرجل . وما يجعله يقول : «إن تسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً »(٤) وماذا يعنى بكلمة «الطبيعة» التى يلجأ إليها باستمرار لتبرير سيطرة الرجل وخضوع المرأة ؟ يجيب أرسطو أن ذلك كله يعتمد على طبيعة النفس البشرية .

= لأن البنات على وجه الخصوص يُطرحن فى العراء على هذا النحو أكثر من البنين . وكلمة اللقيط نفسها تعنى الوليد الذى يوجد ملقى على الطريق لا يعرف أبواه ، أى أنه التقط من الطريق بعد أن كان يتعرض للموت !

(١) Aristotle, Politics, 1335 - B.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) Ibid.

خامساً : طبيعة النفس :

يعتقد أرسطو أن الدراسة العميقة للفكرة التى تقول : إن هناك من البشر مَنْ يحكم «بالطبيعة » ومن يكون محكوماً بالطبيعة أيضاً تؤدى بنا مباشرة إلى دراسة طبيعة النفس . فالنفس بطبيعتها عنصران : عنصر حاكم وعنصر محكوم ، ولكل منهما فضائله المختلفة ، واحد ينتمى إلى العنصر العاقل الحاكم ، والآخر ينتمى إلى العنصر اللاعاقل المحكوم . ومن الواضح أن ما يصدق على النفس البشرية يصدق على الحالات الأخرى (كالمنزل والدولة) ويمكن أن ننتهى من ذلك كله إلى القول بأن هناك قانوناً عاماً ينص على أنه من الطبيعى أن تكون هناك عناصر حاكمة بطبيعتها ، وعناصر أخرى محكومة بطبيعتها (١) .

ولما كان هناك مبدأ أو قانون عام يعمل على مستويات مختلفة ، فإن هناك مجالات متعددة لعمله تبعاً للمستويات التى يعمل منها : فحكم الرجل الحر للعبد هو نوع معين من الحكم ، وحكم الذكر للأنثى هو نوع آخر من الحكم . وحكم الرجل الناضج أو الراشد للطفل هو نوع ثالث . ومن الصواب أن نقول : إن هؤلاء الأشخاص جميعاً (الرجل الحر والعبد – والذكر والأنثى – والرجل الراشد والطفل) يملكون جميعاً جوانب مختلفة من النفس (٢) لكنهم يملكونها بطرق مختلفة ، وعلى مستويات مختلفة : فالعبد محروم تماماً من ملكة التروى والاختيار ، والأنثى ، وإن كانت تملكها ، فإن الصورة الموجودة عندها تظل غير فعالة ، والأطفال يملكونها أيضاً ، ولكن فى صورة غير ناضجة (٣) .

وهكذا يصل أرسطو إلى ضرورة أن يحكم الرجالُ النساءَ ، والسادة العبيد ، والآباءء الابناء ، والناضجون أو الراشدون الأطفال . لماذا ؟ إن مجرد القول بوجود مبدأ ينص على أن يحكم البعض وأن يكون البعض الآخر محكومين ، لا يخبرنا هو نفسه مَنْ الذى يحكم .

---

(١) أرسطو : السياسة ١٢٦٠ ـ أ . ويبدو أن أرسطو يقع هنا فى دور منطقى ، فهو فى البداية يذهب إلى أن العلاقة بين الأشخاص هى كالعلاقة بين عناصر النفس ، ثم يعود من العلاقة بين عناصر النفس إلى العلاقة بين الأشخاص ، ومركز الدور هنا هو المبدأ العام للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ! وسوف نعود إلى هذه الفكرة بعد قليل .

(٢) أرسطو : السياسة ١٢٦٠ ـ أ ، ويقدم أرسطو فى الكتاب السابع من السياسة صورة كاملة لعنصرى النفس : الحاكم والمحكوم .

(٣) نفس المرجع ، فى نفس الموضع .

ومن ناحية أخرى لم تشغل بال أرسطو فكرة أن تحكم الموجودات البشرية الحيوانات ، لأنه كان يعتقد أن الحيوانات ينقصها العقل ، وذلك ما يجعلها فى مرتبة دنيا عن الإنسان ، ويؤهل البشر للسيطرة عليها . غير أن جميع الموجودات البشرية ، من حيث إنهم بشر يملكون العقل ويشاركون فى المبدأ العقلى (١٢٥٩ - ب) إذن فما هى الأسس التى يعتمد عليها أرسطو ليجعل للمرأة وضعاً دونياً وتابعاً للرجل ، كما يجعل العبد تابعاً للسيد وأدنى منه ، والطفل أقل مرتبة من الراشد ؟! .

من حسن الحظ أن أرسطو نفسه يقول : « إن تكوين النفس ذاته يكشف لنا الطريق » (١٢٦٠ - أ) فالنفس تتألف من جانبين أو عنصرين : العنصر العقلى والعنصر اللاعقلى. ومن الطبيعى ، بل ومن المفيد أن يحكم العنصر العقلى ويسيطر على الجانب اللاعقلى فى النفس (١٢٥٤ - ب) - (وقارن الاخلاق : الكتاب الأول ، الفصل الثالث عشر). وهكذا نجد أن من العدل أيضاً أن يحكم الرجال النساء ، صحيح أن لديهن ملكة التروى العقلية ، لكنها بلا فاعلية ، ولذا فمن السهل أن يسيطر عليهن العنصر اللاعقلى ! . وبالطريقة نفسها لا بد أن يحكم السادة العبيد ، لأن العبيد ليس لديهم إرادة على الفكر المتروى ، والعنصر العقلى الموجود فى نفوسهم لا يمكّنهم إلا من الاستماع إلى أوامر السادة ، واستيعابها ، وفهمها ، وطاعتها ، والعمل على تنفيذها . والواقع أن كل ما يفرق بين العبيد والبهائم ، هو أنهم ـ على خلاف البهائم ـ لديهم الحد الأدنى من القدرة العقلية التى تمكنهم من فهم نتائج تفكير ساداتهم ، وفيما عدا ذلك فإنهم يماثلون بهائم البرية (١٢٥٤ - ب). وعلى الآباء والراشدين أن يحكموا الأطفال والقصر ، لأن الأطفال على الرغم من أن لديهم القدرة والإرادة على التفكير المتروى المرتبط بالعنصر العقلى للنفس ، فإن هذه الإرادة لم تنضج بعد (١٢٦٠ - أ) .

وهكذا يحاول أرسطو ، بناء على عنصرى النفس العقلى واللاعقلى ، أن يبرر فكرته التى تقول : إن بعض فئات الموجودات هى بطبيعتها حاكمة ، وبعضها الآخر هى بالطبيعة أيضاً محكومة ، تماماً مثلما أن أحد جوانب النفس « العنصر اللاعقلى » يخضع للجانب الآخر « العنصر العقلى » . وعلى ذلك فالطبيعة التى لا تفعل شيئاً باطلاً ولا عبثاً ، هى التى فرضت على جنس الإناث أن يخضع لجنس الذكور ، لأن قواه العقلية أقل ، والعنصر اللاعقلى كالانفعالات ، والشهوات ، والعواطف ... إلخ يطغى عليه . وانخدع الكثيرون

بهذا البرهان الهوائي فذهبوا إلى أن المرأة بطبيعتها – لا بحكم التربية أو المجتمع أو العادات أو التقاليد أو التنشئة ... إلخ عاطفية سريعة التأثر [1] .

غير أن ما قلناه هو فكرة عامة عن برهان أرسطو ، وإذا أردنا أن نفهمه على نحو أكثر عمقاً ، فإن علينا أن نفهم بتفصيل أكثر وصفه لأفعال جانبي النفس والعلاقة بينهما .

علينا أن نعود إلى « الأخلاق النيقوماخية » كما نعود إلى أجزاء من كتابه «السياسة» لنعرف كيف يصف أرسطو عنصري النفس العاقل وغير العاقل : السمة الرئيسية لهذه العلاقة هي أنها علاقة سلطة وسيطرة ، فمن المفروض أن يحكم الجانب العاقل من النفس ويسيطر على الجانب غير العاقل . وهي سلطة أُعِدَّ لها الجانبان وترسخت فيهما بالطبيعة (١٢٥٤ – ب) . ومع ذلك فإن أرسطو يشير إشارة واضحة أحياناً ، وضمنية أحياناً أخرى إلى أن الجانب العقلي لا يتمكن دائماً من ممارسة هذه السلطة . فأرسطو يقول كما سبق أن رأينا ، أنه في حالة العبيد ، والنساء ، والأطفال ، نجد أن الجانب العاقل من النفس لا يحكم الجانب غير العاقل ، وربما كان علينا أن نتساءل أكان **من المفروض** أن يحكم هذا الجانب غير العاقل في حالة النساء والعبيد والأطفال (؟) . وحتى في البالغين من الذكور ، فإننا نجد أن الجانب العاقل أحياناً لا يتمكن من السيطرة على الجانب غير العاقل واخضاعه له وما لم يكن الأمر كذلك ، لما وجد أرسطو ضرورة على نحو ما فعل في كتابيه « الاخلاق » و « السياسة » إلى إعطاء تعليمات عن أهمية سيادة الجانب العاقل في النفس وبقائه مسيطراً آمراً . ومن هنا فإن أرسطو عندما يتحدث عن الجانب العقلي في النفس ، وضرورة سيطرته على الجانب اللاعقلي ، فلا يمكن أن يكون ذلك فقط إشارة إلى

(١) انظر مثلاً تعليق مترجم « السياسيات » في القرن العشرين ، الأب أوغسطينوس رباره حيث يقول : « إن جنس الإناث ذو حسٍّ دقيق عاطفي سريع التأثر ينقاد لعوامل الشعور ولا يسترشد بنور العقل . ولهذا فهو أقل استعداداً للرئاسة من جنس الذكور ، لأن الرئاسة قيادة تستوحي العقل لا الشعور في سننها وأساليبها . إلا أن التربية قد تتدارك هذا النقص الطبيعي ، ولكن يخشى دائما أن يغلب الطبع التطبع » ص ٣٧ حاشية ١ . وهو يقول ذلك في وقت كانت تحكم فيه العالم مجموعة شهيرة من النساء ! ، تاتشر في إنجلترا التي لقبت بالمرأة الحديدية لصلابتها وقوتها ، فلم تكن تسيطر عليها عواطفها ومشاعرها قط ! ، وبي نظير بوتو التي كانت أرجح عقلاً من كثير من الرجال حتى قبل أن تتولى الحكم ، وأنديرا غاندي في الهند ، واكيبو في الفلبين ... الخ ، وأترك للقارئ العربي أن يتذكر ما فعلته بنا جولدا مائير ...!

أن ما يحدث فى جانب من النفس يحدد ما يحدث فى الجانب الآخر بطريقة آلية . والحق أنه لو أن ذلك هو ما كان أرسطو يقصده - أن يحكم الجانب العاقل الجانب غير العاقل - لكان عليه فى هذه الحالة أن يضيف أن الجانب غير العاقل ، يمكن فى بعض الأحيان أن يحكم الجانب العاقل . لكن من الواضح أنه رفض ذلك عندما ذهب إلى أن الجانب غير العاقل قد « يظهر » أحياناً أنه يحكم الجانب العاقل فى حين أنه فى الحقيقة لا يفعل (١٢٥٤ - ب) . ومن ثم فالحكم أو السلطة أو السيطرة التى تنسب إلى الجانب العاقل ترتبط بميزة أو جدارة أو استحقاق يتمتع بها هذا الجانب ، أو ينبغى أن تكون له مثل هذه الميزة - لأنه مؤهل بحكم طبيعته لأن يحكم الجانب اللاعقلى ، حتى ولو لم يحدث ذلك دائماً (١٢٥٤ - ب) .

والواقع أن أرسطو عندما يصف العلاقة بين جانبى النفس - العاقل وغير العاقل - بأنها علاقة « حاكم ومحكوم » فإنه يتحول إلى لغة الأشخاص والسياسة ، فهذا حكم استبدادى أو دستورى أو ملكى (١٢٥٤ - ب) وعندما ننظر إلى أجزاء النفس فى ترتيبها المناسب ، فإننا نجد عندئذ أن الجانب العاقل يُملى ويأمر ، فى حين أن الجانب غير العاقل يستمع ويطيع ، وبالطريقة نفسها التى يطيع بها الطفل والده (الأخلاق ١١٠٢ - ب) (١١٢٠٣ - أ) والواقع أن أرسطو حين يعالج أجزاء النفس فى كتابيه « الأخلاق» و «السياسة » فإنه يعالجها كما لو كانت علاقة بين كائنات سياسية لا على أنها علاقة بين أجزاء شبه عضوية ، وغير شخصية .

وهذا هو ما تسميه إليزابث سبلمان Elizabeth Spelman « تسييس النفس عند أرسطو » [1] فهو لا يصف أجزاء النفس بلغة يمكن أن تنطبق على العلاقة بين الأشخاص فحسب ، وإنما يتحدث أحياناً عن أجزاء هذه النفس مشبهاً إياها بأشخاص معينين :

« كما أن الطفل ينبغى عليه أن يعيش ، وفقاً لتعليمات مُؤدبة ، فكذلك الجانب الشهوانى من النفس ، ينبغى أن يكون حسبما يوجهه المبدأ العقلى [2] ».

---

(١) انظر مقالها : Aristotle and the Politicization of the Soul " In Discovering Reality, P . 17-30 ed. by Sandra Nerding .

(٢) Aristotle, Ethics, 1119 - B .

« طبيعة الشهوة يوضحها ما قاله الشعراء عن أفروديت Aphrodite ابنة قبرص الماكرة[١] . وتبين لنا العلاقة بين السيد والعبد ، أو بين الزوج والزوجة ، النسبة التى يرتبط بها ذلك الجزء من النفس ذو المبدأ العاقل بذلك الجزء من النفس غير العاقل [٢] .

والواقع أن أرسطو يذهب بعيداً إلى حد التوحيد بين « الشخص » ، وذلك الجزء من النفس . يقول : الأفعال التى يفعلها الناس على أساس مبدأ عقلى يعتقدون أنه من المناسب أن تكون أفعالهم هم ، أى أنهم فعلوها بإرادتهم ، وأن كل واحد منهم هو هذا الفعل أو ذاك[٣] وفضلاً عن ذلك فإن أرسطو يصف « العقل » أحياناً كما لو كان شخصاً آخر ينبغى أن ينقاد له كل مَنْ يمتلكه : يقول « العقل عند كل مَنْ يملكه ، يختار ما هو أفضل لذاته ، والرجل الفاضل هو من يطيع العقل » [٤] .

ويمكن أن نلخص ذلك بقولنا : إن أرسطو عندما يصف أجزاء النفس وما بينها من علاقات ، فإننا نلاحظ أن أوصافه مشخصة أو تشبيهية ، فأنت تراه يستخدم ألفاظاً سياسية كما لو كان يبحث عن العلاقات بين الأشخاص فى المدينة . وهو بذلك ينسى أو يتجاهل النصيحة التى ساقها هو نفسه للقارىء فى كتابه عن « النفس » بالابتعاد عن تشخيص أجزاء النفس ووظائفها [٥] وتشرح « إليزابث سبلمان » وصف أرسطو لطبيعة النفس واستخدامه لهذا الوصف فى تبرير نظرته إلى النساء على أنهن خاضعات بطبيعتهن للرجال[٦] على النحو التالى :

١ ـ فى النفس جانب عاقل بالطبيعة هو الذى يحكم الجانب غير العاقل ويسيطر عليه (وإن كان لا يفعل ذلك دائماً) وإذا فهمنا طبيعة سيطرة الجانب العاقل على الجانب غير العاقل فى النفس استطعنا فهم طبيعة سيطرة الرجل وسلطانه على المرأة فى المدينة . وهكذا يسير أرسطو إلى إلى النتيجة الثانية :

---

(١) الأخلاق النيقوماخية ١١٤٩ ـ ب ، ويقال أن البيت للشاعرة سافو ، والوصف ينسب إلى الشاطئ الذى نزلت إليه عندما خرجت من البحر ـ انظر د. عبد الغفار مكاوى « سافو : شاعرة الحب والجمال عند اليونان » ص ٧٢ حاشية ١ ، دار المعارف بمصر عام ١٩٦٦ م .

(٢) الأخلاق النيقوماخية ١١٣٨ ـ ب .

(٣) المرجع نفسه ١١٦٨ ـ ب .

(٤) المرجع نفسه ١١٦٩ ـ ب .

(٥) E . V . Spelman, Op . Cit . p 21.

(٦) Aristotle, De Anima, Lo 8-B .

٢ ـ فى الدولة لا بد للرجال أن يحكموا النساء بالطبيعة وأن يسيطروا عليهن ، فتلك هى طبيعة الرجل أن يكون حاكماً ، وطبيعة المرأة أن تكون محكومة . لكن لماذا ربط أرسطو بين : الرجال والجانب العاقل فى النفس ، وبين النساء والجانب غير العاقل ؟ لأنه كان يعتقد:

٣ ـ أن الجانب العاقل يحكم الجانب غير العاقل فى نفوس الرجال ويسيطر عليه على حين أن :.

٤ ـ أن الجانب العاقل فى نفوس النساء لا يحكم بطبيعته الجانب غير العاقل ولا يسيطر عليه أو أن :

٥ ـ الجانب غير العاقل فى نفوس النساء ـ بحكم طبيعتهن ـ يحكم الجانب العاقل ويسيطر عليه . إذ لا شك أن أرسطو يفترض أن القدرة على التروى فى حالة النساء تكون بغير سلطان، وأن إرادة النساء بلا فاعلية . وهكذا يسيطر الجانب اللاعقلى فعلاً ويتغلب على الجانب العقلى . باختصار إذا كان الجانب العقلى هو الذى يحكم فى الرجل الحر فإنه لا يحكم فى حالة النساء ، وليس هو صاحب السلطة ، وهذا يعنى أمراً بالغ الأهمية وهو أن النساء توابع أو خاضعات للرجال ، لا لأن ذلك مجرد حدث أو تقليد أو تراث .... إلخ بل لأنهن مخلوقات بالطبيعة ليكن كذلك تماماً ، مثلما أن الذين يحكمون هم حكام بالطبيعة وأن المحكومين هم كذلك بالطبيعة . ولا يمكن للطبيعة أن تنجح فى جعل النساء خاضعات للرجال ، ما لم تكن قد نجحت فى جعل الجانب العاقل عندهن بغير سلطان . وهكذا يعتقد أرسطو أن النساء خاضعات للرجال بفعل الطبيعة التى تتجه عن عمد ، لتحقيق تلك الغاية . أى أن نقص سلطان الجانب العقلى فى النساء ، لا بد أن تكون الطبيعة قد اتجهت إليه وقصدته . وباختصار فإن النساء بالطبيعة « غير طبيعيات » [١] .

وعلى ضوء هذا يتضح أن أرسطو فيما يتعلق بالعلاقة بين النساء والرجال ليس مجرد شارح للوضع القائم Status Quo وإنما هو مُنظِّر لهذا الوضع .

ومن المهم أن نلاحظ أن الجانب العقلى عند النساء لا يكون دائماً بغير سلطة على الجانب اللاعقلى ، وأنه لا يستمر هكذا بلا فاعلية ، إذ لو صح ذلك فلن يكون ثمة وسيلة للتفرقة أو التمييز بين الحالة **الطبيعية** للنساء (أو الوضع الطبيعى للمرأة) وبين الحالة **غير**

---

(٣) E . V . Spelman, Op . Cit . P 21.

الطبيعية للرجل الحر الذى يخضع لشهواته وغرائزه عندما يفرط فى الانغماس فى الملذات - ففى حالة هذا الرجل الحر ، يتوقف الجانب العقلى فى نفس الإنسان عن ممارسة وظيفته الطبيعية ، وهى السيطرة على الجانب غير العاقل . فهنا هنا يحدث أن لا يمارس الجانب العقلى وظيفته وسلطته رغم أنه مؤهل للقيام بهذه الوظيفة ، حيث أعدته الطبيعة سلفاً لأن يكبح جماح هذا الجانب اللاعقلى .

أما فى الحالة الأخرى - حالة المرأة - فإننا نجد أن الجانب العاقل لا يمارس هذه السلطة ، ولو أن الطبيعة كانت قد أعدته لممارستها لما كان الموجود فى هذه الحالة « امرأة» غير أن أرسطو يقع هنا فى مأزق واضح ، فهو يقول من ناحية : إن الطبيعة أعدت الجانب العقلى للسيطرة على الجانب غير العقلى ، لكنه من ناحية أخرى عندما يتحدث عن المرأة يخرج عن هذا المبدأ ليقول : إن الطبيعة أهلت الرجال للسيطرة على النساء ، فكأنه يقول أن الطبيعة قد أعدت الجانب العقلى من النفس ، فى حالة النساء ، بحيث لا تكون له الغلبة ، ولا السيطرة على الجانب اللاعقلى .

هل يعنى ذلك أن أرسطو لكى يصل إلى فكرته التى تقول : إن النساء بطبيعتهن لا بد أن يخضعن للرجال ، كان عليه أن ينكر إحدى مقدماته الرئيسية ، وهى أن الجانب العاقل فى النفس هو الذى يحكم بطبيعته الجانب غير العاقل ؟

دعنا ننظر فى برهانه مرة أخرى :

إنه يقول : كما أن الجانب العقلى هو الذى يحكم الجانب غير العقلى ، فكذلك ينبغى للرجال أن يحكموا النساء . وهذا يعنى أن العقلانية مقتصرة على الرجال فى حين أن اللاعقلانية صفة ملازمة للنساء . لكن ما هى الأسس التى يمكن أن يقيم عليها ارتباط العقلانية بالرجال واللاعقلانية بالنساء ؟ لقد أقامها كما سبق أن رأينا على أساس أن الطبيعة تؤهل العقلانية لأن تحكم فى الرجال ، كما أنها تتجه إلى جعل هذه العقلانية ذاتها لا تحكم فى النساء ، غير أن ذلك مصادرة على المطلوب .

فكيف عرف أرسطو أن الطبيعة تميل إلى أن تفعل ذلك ؟ أعنى : كيف عرف أنها تتجه إلى إعداد الرجال والنساء على هذا النحو ؟ إجابته الوحيدة الممكنة هى أن الرجال تسود فيهم العقلانية فى حين أنها لا تسود عند النساء . لكن ذلك لا يبرز القول بأن الطبيعة تفعل ذلك ، فأرسطو نفسه هو الذى يقول : إن مجرد واقعة غلبة جانب من النفس

على جانب آخر وسيطرته عليه ، وكذلك غلبة مجموعة من الناس على مجموعة أخرى ، لا تبرهن قط على أن هذه هى الطريقة التى ينبغى أن تكون عليها الأشياء لتكون متفقة مع الطبيعة . وإذن فبرهان أرسطو عن خضوع النساء الطبيعى لرجال هو برهان ضعيف متداع ؛ لأنه يأخذ بنظرية متناقضة عن العلاقة الطبيعية بين الجانب العقلى وغير العقلى فى النفس ، ثم يصادر على المطلوب عندما يزعم أن العنصر العقلى هو بالطبيعة الذى يحكم فى الرجال ولا يحكم فى النساء (١) .

* * *

(١) E . V . Spelman, Op . Cit . p 23-4 .

الفصل الثالث

المرأة .... والأخلاق

« شر خصال الرجال خير خصال النساء : البخل ، والزهوْ ، والجبن ».

« الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٢ ص٤٤ .

« ليس من المناسب أن تتحلى المرأة بفضائل الرجل ».

أرسطو : فن الشعر ١٤٥٤ - أ

« ما يصدر عن الرجال أنبل مما يصدر عن النساء » .

أرسطو : الخطابة ١٣٦٧ - أ

أولا : هيراركية الأخلاق :

هذا ميدان ثالث يُطَبِّقُ فيه أرسطو أفكاره الميتافيزيقية السابقة ، وهى الأفكار التى شكل منها نظرية كاملة عن المرأة ، وها هنا سنجد من جديد فكرة الهيراركية ، وفكرة الوظيفة ، والهيولى والصورة ... إلخ . ولقد سبق أن رأينا أرسطو يذهب مسايراً تراث المجتمع اليونانى إلى أنه يمكن تعريف المرأة بوظيفتها فى الإنجاب وتربية الأطفال ، أو قل بدقة أكثر : تربية الأبناء ؛ لأن الأب لم يكن يهتم بالبنات . وباختصار « كان وضع المرأة فى المجتمع الأثينى يشبه كثيراً وضع العبيد ، فلفظ الزوجة كان يعنى دامار Damar وجذور هذا اللفظ تعنى التابعة . وعندما كانت العروس تصل إلى بيت العريس كان يفرغ فوق رأسها سلة مملوءة بالبندق لجلب الحظ ، وهو تقليد كان يمتد إلى العبيد الذين اشتراهم الرجل حديثاً . ولم تكن المرأة ، كالعبد ، تتمتع بأية حماية فى ظل القانون ما لم يملكها رجل . إذ الواقع أنها لم تكن شخصاً فى نظر القانون .. »(1) .

وهكذا اقتصر دور المرأة على الإنجاب - الذى يخلو من المتعة الجنسية التى تقوم بها العاهرات والغوانى - وتربية الأطفال ورعايتهم ، ولا سيما الذكور منهم والإشراف على الأعمال المنزلية ، وأداء الواجبات نحو الزوج أولاً ، وسوف نعرض لها بعد قليل . ثم تجاه الأبناء والعبيد وبالتالى لم يكن لها دور خارج المنزل ، وخارج الإنجاب للمحافظة على النسل وتحقيق الخلود للذكر ، فهى وسيلة يستخدمها الذكر لتحقيق غاياته فى حياته ، وبعد مماته على حد سواء .

ولو تأملنا النظرية الأرسطية ، قليلاً ، لوجدنا أنها « تُـنَـظِّر » العادات والتقاليد الموجودة فى المجتمع بالفعل ، فأفكار أرسطو الميتافيزيقية الأساسية تساعد على إعطاء المبررات « العقلية» للوضع المتدنى للمرأة فى المجتمع الأثينى : فالمرأة تبعاً للهيراركية الأرسطية أدنى من الرجل ، وأقل من حيث القدرة العقلية ، إذ يطغى عليها الجانب الجسدى أو جانب الانفعالات والشهوات .. إلخ فهى أقرب إلى العبد كما ذكرنا منذ قليل . كما أنها أضعف من الرجل فى قدراتها العامة نظرا لقلة الحرارة عندها كما تكشف البيولوجيا ، وهى الهيولى فى حين أن الرجل هو الصورة ، وهى « الجسد » فى حين أن الرجل هو «الروح » وهى « المادة الخام » ، والرجل هو « المبدأ العقلى » . ولهذا كان الرجل هو الأعلى ،

---

(1) Eva C . Keuls, The Reign of Phallus p .6 .

والاسمى ، والأرقى ، وهو الذى يحكم فى المنزل أولاً وعلى المرأة السمع والطاعة، وهو الذى يحكم فى الدولة ثانياً وعلى المرأة أن تظل بعيدة عن ضجيج السياسة ، وأن تلوذ بالصمت الذى هو « زينتها وتاجها » .

فإذا تساءلنا عن وضع المرأة فى ميدان الأخلاق ، أعنى عن علاقتها بالفضائل البشرية ، كان الجواب يسير فى نفس الخط السابق ، « فنظرية أرسطو الأخلاقية بكاملها متأثرة ، على نحو واضح جداً ، بنظريته الهيراركية التى اعتبرها طبيعية ، لأنها ضرورية فى تحقيق الأهداف الخاصة بالحياة البشرية[1] .

ويمكن أن نقول بصفة عامة :

١ ـ إن جميع الفضائل البشرية الأساسية التى ناقشها أرسطو فى كتابه « الأخلاق » كالصداقة ، والحب ، والعدالة ... إلخ ليست على مستوى واحد بالنسبة لجميع الأشخاص وإنما هى تختلف اختلافاً جذريا فى طبيعتها ، وتعتمد فى ذلك على الوضع النسبى للأشخاص الأعضاء فى المجتمع ، وعلى مرتبة كل منهم ومركزهم الاجتماعى والأسرى إلخ

٢ ـ لا ينظر أرسطو إلى أى مفهوم أساسى من مفاهيم الأخلاق : كالأمانة ، أو الشرف أو الإخلاص ، أو العفة ، أو الشجاعة .. إلخ على أنه يمكن أن ينطبق على نحو عام وكلى على جميع أفراد البشر ، بل لابد من مراعاة وضع الشخص فى سُلّم الهيراركية البشرية ، وبالتالى رتبته ومركزه ووظيفته ، فتلك هى الأمور الحاسمة التى تحدد نوع الفضيلة أو العفة أو الشجاعة المطلوبة لهذا الشخص أو ذاك . قل لى أين يقع وضعك الاجتماعى : أقل لك ما هى الفضائل المناسبة التى ينبغى عليك أن تتحلى بها .

لهذا السبب نجد أرسطو يطرح منذ البداية مجموعة من التساؤلات عن الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها أفراد الأسرة ، وعما إذا كانت واحدة عند الجميع ، وهو يبدأ بالعبيد ، فيرى أنه من المسلّم به أن لهم قيمة بوصفهم أدوات حية وخدم (لاحظ أنهم يقومون مقام الثور فى الأعمال الشاقة التى ذكرها هزيود فى شعره) لكن أيمكن أن تكون لهم فضائل أخرى ؟ هل هناك فضائل أعلى ؟ أيمكن لهم أن يكتسبوا احترام الذات ، والشجاعة والعدالة ، وغير ذلك من فضائل ؟ ثم يقول : إننا نستطيع أن نجيب عن هذه الأسئلة بإحدى طريقيتين تمثل كل منهما مشكلة : فلو أننا قلنا : نعم ، لهم فضائل من هذا

Susan M. Okin : Women in Wesern of Political Thought, p 86 .(١)

القبيل لثار سؤال جديد : وما الفرق بينهم ، فى هذه الحالة ، وبين الأحرار من البشر ؟ ولو كانت الإجابة بالنفى ، أعنى أنه ليس لهم فضائل من هذا النوع ، لكان الوضع غريباً أيضاً ما داموا موجودات بشرية لديها قدرات عقلية [١] .

ويمكن أن يطرح هذا السؤال نفسه بالنسبة للزوجة والأطفال : ألهما فضائل أخرى ؟ أينبغى للمرأة أن تكتسب احترام الذات ، والشجاعة ، والعدالة ؟

أينبغى أن تكون الزوجة خيّرة ، كريمة ، فاضلة ، بمعنى أن تتحلى بفضيلة العفة وضبط النفس ، وغيرهما من فضائل الزوج أم أن لها فضائلها الخاصة ؟ وهل يمكن أن نصف الطفل بأنه فاسق أو عفيف ؟ [٢]

ويستمر أرسطو فيقول : إن علينا قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة أن نسير بالبرهان أبعد من ذلك ، فلا بد أن نطرح السؤال لا بالنسبة لحالات جزئية خاصة بل بصفة عامة ، فهل فضيلة الذين يحكمون بالطبيعة هى نفسها فضيلة المحكومين بالطبيعة ؟ لو قلنا أنهم يشتركون فى فضيلة واحداة ، فلماذا يكون أحدهما دائماً حاكماً والآخر دائماً محكوماً ؟ لا يمكن أن يكون الفارق بينهما فارقاً فى الدرجة ، فإن ذلك يسمح بمشاركتهما فى نفس الفضيلة ، لكن بقدر متفاوت ، وإنما لا بد أن يكون الفارق بين الحكام والمحكومين فارقاً فى النوع ، فالدرجة ، أعنى : الكم – لا علاقة لها بالموضوع هنا . ومن ناحية أخرى لو أننا قلنا: إن أحدهما ينبغى عليه أن يشارك فى الفضيلة فى حين أن الآخر لا ينبغى عليه المشاركة فيها ، لوضعنا أنفسنا فى وضع قد يبدو بالغ الغرابة ، إذ كيف يمكن للرئيس أن يجيد فن الحكم إذا لم يكن عفيفاً ؟ وكيف يمكن للحاكم أن يحكم حكماً سليماً مالم يتحل بفضيلة العدالة ؟ وإذا لم يكن لدى المحكومين فضيلة العفة والعدالة فكيف يتسنى لهم أن يحسنوا الخضوع والطاعة ؟ [٣] . فلو أننا تصورناهم مجموعة من السفلة والجبناء لصعب عليهم أداء واجباتهم . والنتيجة التى ينتهى إليها أرسطو من هذا المناقشة هى أن الطرفين ، الحكام والمحكومين ، يتحتم عليهما أن يشتركا فى الفضيلة ، وإن اختلفت نوع الفضيلة عند كل منهما بحيث يكون للحكام فضيلتهم الخاصة ، ويكون للمحكومين

---

(١) Aristotle, Politics, 1259-B.

(٢) ibid.

(٣) Ibid.

فضيلة أخرى خاصة بهم . وهذا المبدأ نفسه ينطبق على العبيد والنساء والأطفال ، فليس ثمة معيار أخلاقى واحد ينطبق على الجميع ، وليس ثمة فضائل أخلاقية واحدة للإنسان بما هو إنسان ، أعنى لا بد أن يتحلى بها أفراد البشر جميعاً ، وإنما هناك هيراركية أخلاقية هناك سُلّم من الفضائل يرتبط أوثق ارتباط بوضع كل فرد ومكانته فى المجتمع .

ثانياً : أخلاقيات الأسرة :

يذهب أرسطو إلى أن جميع أعضاء الأسرة يشاركون فى الفضائل ، لكنهم لا يشاركون فيها بنصيب واحد ، وبطريقة واحدة ، بل هم يتفاوتون فى ذلك كل بقدر وظيفته وموقعه من الأسرة ، فرب الأسرة يجب أن يحرز أعلى الفضائل مثله مثل الحاكم أو الرئيس لا بد أن تكون لديه الفضائل كاملة بقدر المستطاع ، لأن وظيفته هى وظيفة المهندس أو العقل المهندس . أما بقية أعضاء الأسرة فإنه يكفيهم أن ينالوا من الخير الأخلاقى بالقدر الذى تتطلبه مراكزهم : فعفة الزوجة غير عفة الزوج ، وشجاعة المرأة غير شجاعة الرجل . كما أن العدل يختلف بينهما أيضاً : فهناك شجاعة الرئيس أو الحاكم ، وهناك شجاعة العبد أو الخادم ، وهناك شجاعة المرأة ... الخ ولا بد أن يُعَدُّ الرجل جباناً إذا لم يكن لديه من الشجاعة إلا ما لدى المرأة ، كما أن المرأة تعتبر ثرثارة إذا لم يكن لديها من التحفظ إلا بمقدار ما يجب أن يكون عليه الرجل الذى يعرف السلوك فى الحياة ، وعلى ذلك ففى الأسرة تختلف وظائف الرجل أشد الاختلاف ، وبالتالى تختلف فضائله عن المرأة وفضائلها.

وإذا كان العبد يولد عبداً بالطبيعة التى ميزته بقوة الجسد والقدرة على الأعمال الوضيعة الشاقة ، وجعلت الجانب العقلى عنده ضحلاً لمجرد أن يفهم أوامر سيده ، فإن فضائله لا بد أن تكون مختلفة ، عليه السمع ، والطاعة ، وتفهم إرشادات سيده وتنفيذها ، لأن فى ذلك صالحه هو ، ونفعه هو الخاص . والواقع أن فضائل العبد غايتها تسهيل مهمة السيد تماماً مثلما أن فضائل الطفل غايتها تسهيل عمل الناضجين الذين يسهرون على تربيته وتهذيبه وفى هذه النظرية نجد فى الواقع تجاهلاً واضحاً للقيم الروحية سواء عند الطفل أو عند العبد على حد سواء ، بل إنك ستجد هذه النظرية تنطبق أيضاً على الطبقة المنتجة فى المجتمع كالصناع والزراع والتجار ... الخ .

أما بخصوص الواجبات المفروضة على كل من الزوجة وزوجها فى علاقتهما الأسرية فإن أرسطو يلخصها على النحو التالى [1] :

---

(١) Aristotle, Economics, 1353-B (Vol. 2 p. 2146).

١- واجبات الزوجة :

يعتقد أرسطو أن المرأة « الفاضلة » صاحبة الامتياز الحقيقى والجدارة الحقيقية هى التى تكون ربة منزل من الطراز الأول ، تسهر على تربية الأطفال ، وتسير على قواعد محددة منها [١] :

١- ينبغى ألا تسمح لأحد بدخول المنزل بدون علم زوجها [٢] .

٢- أن تبتعد عن القيل والقال ، وما تمارسه النسوة المتسكعات اللائى ينتقلن من منزل إلى آخر ، ويعملن على تسميم النفوس [٣] .

٣- ينبغى ألا تطلع أحداً على ما يدور بداخل منزلها بل تكون هى وحدها العليمة بما يحدث فيه ، فإذا ما وقع أمر من خارج البيت كان الزوج هو الملام [٤] .

٤- لا بد أن تكون مدبرة ، فتضبط نفقات البيت [٥] ، والحفلات التى يفضلها زوجها وأن تجعل حدوداً معينة من الإنفاق على اللباس والزينة ، واضعة فى اعتبارها أن الجمال لا يعتمد على الملابس الغالية الثمن ، ولا على كثرة المجوهرات [٦] .

٥- امتياز المرأة لا يعود إلى الذهب بمقدر ما يرجع إلى سلوكها وتصرفاتها فى كل ما تفعل ، وميلها إلى حياة شريفة منظمة تنظيماً جيداً ، تلك هى الزينة التى ترفع من قدر المرأة ، وتظل قائمة فى شيخوختها ، باقية لأولادها من بعدها .

---

(١) قارن ما يقوله الإمام الغزالى : « القول الجامع فى آداب المرأة من غير تطويل أن تكون قاعدة فى قعر بيتها لازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها وطلوعها ... وأن تقوم بكل ما تقدر عليه .. وأن تحفظ بعلها فى غيبته ، وتطلب مسرته فى جميع أمورها ... الخ » ، إحياء علوم الدين ، المجلد الثانى ص ٦٦ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٩٨٧ .

(٢) « وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً ، لم تستفهم ولم تعاوده الكلام غيرة على نفسها وبعلها » ، المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣) « قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول » المرجع السابق .

(٤) « حقوق الزوج على الزوجة كثيرة أهمها أمران : الصيانة ، والستر ، والآخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة » المرجع السابق ص ٦٥ .

(٥) « من الواجبات عليها ألا تفرط فى ماله وتحفظه عليه » المرجع السابق ص ٦٥ .

(٦) « ومن آدابها ألا تفاخر على الزوج بجمالها ، ولا تزدرى زوجها لقبحه » المرجع السابق ص ٦٧ .

تلك هى مملكة المرأة التى ينبغى عليها أن تضع فى اعتبارها كيف تحكمها بنظام وتدبر ، وليس من اللائق للرجل أن يعرف كل ما يدور داخل المنزل : أما فى جميع المسائل الأخرى فليكن هدفها أن تطيع زوجها دون أن تلقى بالاً للمسائل العامة . بل حتى عندما يبلغ أولادها مبلغ الزواج ، فلا ينبغى أن تتدخل فى هذا الموضوع ، وإنما عليها أن تتنحى تماماً ، وأن تصغى إلى زوجها بكل احترام فتوافقه ، وتطيع أمره ، وأن تكون على بينة تامة من أنه إذا كان من غير اللائق أن يتدخل هو فى الشئون الداخلية للمنزل ، فإنه لا يليق لها أن تتطفل على الأمور التى تقع خارج البيت « إن على المرأة صاحبة الحياة المنظمة ، أن تنظر إلى مطالب زوجها كما لو كانت قوانين فرضتها عليها الإرادة الإلهية[1] ، ما دامت تشاركه حياته . فإذا ما تحملت هذه الحياة بجلد ، وصبر ، وجدت نفسها تحكم بيتها فى سهولة ويسر ، والا فسوف تجد صعوبة بالغة فى إدارة المنزل[2] . ثم يسوق أرسطو بعض النصائح للزوجة « الفاضلة » و « الصالحة » الممتازة ، التى هى جديرة بالثناء منها :

أن تكون وفية لزوجها فى السراء والضراء ، فلا تكون مطيعة له ما دام فى حالة رخاء ، ثم لا تكون كذلك أيام المحنة والشدة : « فإذا ذهبت ثروته بسبب مرضه أو أخطائه ، فينبغى عليها أن تُظهر أن معدنها أصيل . ومن ثم عليها أن تشجعه بكلمات رفيعة ، وأن تخضع له بكل الطرق المناسبة ، وألا تفعل شيئاً وضيعاً أو غير جدير بالاحترام ، وألاّ تذكر له أمراً سيئاً كان قد ارتكبه وهو فى حالة ضيق نفسى ، كذلك عليها أن تكف عن الشكوى أو التذمر ، أو اتهامه بارتكاب الأخطاء وإنما عليها ، على العكس ، أن تعزو كل شىء إلى المرض أو السهو ، أو الأخطاء العابرة ، لأنه بقدر صمودها فى خدمته فى هذه الأوقات يكون امتنانه وعرفانه لها عندما يسترد عافيته ، أو يسترجع ثروته[3] .

ويعتقد أرسطو أن الزوجة التى تعيش مع رجل ثرى ، أو زوج صاحب جاه ، لن تواتيها الفرصة لتكشف عن معدنها الأصيل ، فى حين أن القدرة على تحمل الشدائد هى التى تستحق عظيم الاحترام ، لأن الروح العظيمة هى وحدها القادرة على الحياة وسط المصاعب دون أن تأتى ما يشين : « إنها تصلى لكى تجنب زوجها المحنة ، وعندما يقع الزوج بالفعل

---

(١) « لابد للمرأة أن تعرف أن طاعة الزوج من مبادئ الإسلام » المرجع السابق ص ٦٤ .

(٢). Aristotle, Economics, 1353-A (Vol. 2 P. 2147)

(٣) . Ibid

في محن ، فإنها تدرك أنه ها هنا تظهر المرأة الممتازة الجديرة بأعظم ثناء [١] . ويضرب أرسطو للزوجة « الفاضلة » صاحبة الامتياز – أمثلة شهيرة ، يقول :

« إن على الزوجة الممتازة أن تتذكر أن ألكستيس Alcestis [٢] لم تكن لتنال كل هذه الشهرة ، ولم تكن بنلوب Penelope [٣] ، تستحق كل هذا الثناء والإطراء ما لم يكن قد تعرض زوج كل منهما لمحنة كما هو معروف ، وهكذا حققت متاعب أدميتوس Admetus وأوليس Ulysses سمعة طيبة لهاتين الزوجتين لن تموت أبداً ، لأنهما برهنتا في ظروف صعبة وعصيبة على الإخلاص لزوجيهما فأسبغت عليهما الآلهة الاحترام الواجب . والسبب هو أنه سهل جداً أن تجد شريكة وقت الرخاء ، لكن المرأة الفاضلة هي وحدها التي تشارك في الضراء والمحن ، ولهذا فإنه ينبغي على الزوجة ألاّ تخجل من زوجها حتى إذا ما ذهب عنه ثراؤه ، أو ضعفت صحته[٤] .

---

(١) Aristotle, Ibid.

(٢) ألكستيس Alcestis زوجة أدميتوس Admetus ملك تساليا الذي أصيب بمرض عضال وتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود وتبعد عنه شبح الموت . فأجابته الآلهة إلى طلبه بشرط أن يأتي بـ « بديل » من أهل بيته يموت نيابة عنه إذا حضرته الوفاة . وهنا تقدمت زوجته المخلصة الكستيس فضحت بنفسها لكي ينجو زوجها من الموت ، وهكذا ماتت الزوجة الوّفية فداء لزوجها الملك ! وعندما مرّ هرقل بتساليا وجد الملك يبكي زوجته المخلصة ، ووجد شعبه من حوله يبكي هذه الزوجة ، فهبط البطل إلى ظلمات الدار الآخرة ، وصارع حارسها الجبار ، وعاد بالمرأة المخلصة إلى زوجها ، فسعدت المملكة بأسرها ! .

(٣) بنلوب ـ التي نقضت غزلها هي زوجة « أوليس » القائد اليوناني الكبير في حرب طروادة ، وقد كتب عنه « هوميروس » الأوديسة يصف فيها رحلة العودة إلى بلاده بعد انتهاء الحرب . ذلك أن أوليس لم يعد إلى بلاده مباشرة ، وإنما صادفته عقبات كثيرة في طريق العودة ، وقام بالكثير من المغامرات مع رفقة من الجنود ، وظل يتخبط في البلاد ما يقرب من عشرين عاماً ، ولقد كان الخطاب يتوافدون خلال تلك الفترة لخطبة زوجته بنلوب ، على اعتبار أن زوجها فُقد أثناء القتال ، ولا ينبغي لامرأة جميلة أن تبقى بغير زواج ، لكن بنلوب كانت تشعر أن زوجها لم يمت ، وأنه سيعود إليها آجلاً أو عاجلاً ، ولهذا لجأت إلى المماطلة والحيلة في الرد على خطابها ، فوعدتهم أنها ستقوم باختيار واحد منهم بعد أن تنتهي من غزل ثوب كانت تنسجه ، لكنها كانت تنقض في المساء ما غزلته طوال النهار ، ثم تبدأ في الغزل من جديد كل صباح إلى أن عاد زوجها سالماً .

(٤) Aristotle, op . cit . 1353-B.

٢- واجبات الزوج :

إذا كانت هناك واجبات ينبغى أن تراعيها الزوجة الفاضلة أو الصالحة ، فإن هناك واجبات أخرى ينبغى على الزوج الفاضل أو الصالح مراعاتها [(١)] إذ يجب عليه أن يعامل زوجته بالطريقة نفسها ، ما دامت قد دخلت بيته كشريكة لحياته وحياة أطفاله ، فالنسل سوف يحمل اسميهما معاً . وما الذى يمكن أن يكون مقدساً أكثر من أن ينجب المرء من زوجة نبيلة محترمة ، أطفالاً يكونون قرة عين لهما ، ورعاة لهما فى شيخوختهما وحراساً مخلصين لوالديهما ؟ إن رعاية الوالدين لأطفالهم فى حياتهم ، سوف تعمَل على نمو هؤلاء الأطفال نمواً حسناً على أسس من الفضيلة ، وبغير هذه التربية سوف يختَل سلوكهم وما لم يكن الوالدان قدوة لأطفالهم في حياتهم فسوف يكون أمامهم « المثل السيء » والعذر للسلوك الشائن ، وقد يجلبون على أنفسهم العار والدمار [(٢)] ومن ثم فإن تدريب الزوجة ينبغى أن يكون موضع عناية لاحدٍ له من جانب الزوج ، حتى ينمو الأبناء نمواً حسناً متفرعين من أنبل جذع ، فالفلاح لا يألو جهداً ، عندما يحرث التربة ، عن الاهتمام ببذر البذور فى أصلح أرض وأكثرها خصوبة آملاً بذلك أن يجنى أفضل الثمرات . وهو على استعداد كى يجنبها الخراب أن يدخل فى صراع مع خصومه حتى الموت الذى يكلله الناس بأعلى ثناء !

لا بد للزوج أن يعتنى بزوجته كما يُعنى الفلاح بأرضه التى تنتج له المحاصيل . وعندما يشير أرسطو إلى ضرورة إطعام الجسد نراه يقول صراحة : « لا بد أن نوجه كل عناية إلى أم أطفالنا التى نزرع فيها البذور لتخرج لنا منها الروح الحى ، فبهذه الطريقة وحدها يشارك كل فان فى الخلود ، وتتواصل تقديم الصلوات إلى الآلهة الأسلاف ، ومَنْ لا يفعل ذلك فهو يستخف بالآلهة[(٣)] .

والزوجة الفاضلة يحترمها الناس أكثر عندما يشاهدون إخلاص الزوج لها ، وأنه لا يفضل عليها امرأة أخرى ، لأنه يحبها ويثق فيها ، ولهذا فعلى المرأة أن تسعى أن تكون كما يريد لها الزوج أن تكون .

---

(١) أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والأدب فى اثنى عشر أمراً : فى الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب فى النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق « إحياء علوم الدين المجلد الثانى » ص ٤٧ .

(٢) Aristotle, Economics, 1353-B (Vol. 2 P. 2147).

(٣) Ibid.

غير أن أرسطو يريد من الزوج أيضاً أن يكون محترماً ، فليس من العقل السليم فيما يقول ، أن يهب الرجل اسمه لأبناء غير شرعيين ، أو أن يضاجع كل من هب ودب من النساء ، وإلا فإن « الطفل الوضيع » الذى ينسله فى هذه الحالة ، سوف يشارك الأطفال الشرعيين حقوقهم ، كما يشارك الزوجة أيضاً [١] .

لكن على الزوج أيضاً أن يراعى مجموعة من الأمور الهامة فى معاملة الزوجة :

(١) عند تأنيب الزوجة عليه أن ينتقى كلمات محترمة ، وأن يستخدم عبارات لائقة وأن يختارألفاظاً مهذبة ، فلا يجوز أن يلجأ إلى الألفاظ السوقية .

(٢) عليه أن يتغاضى عن الأخطاء غير المتعمدة ، وما قد ترتكبه الزوجة من أمور تافهة وإذا ما ارتكبت خطأ عن جهل ، فإن عليه أن ينصحها بغير تهديد وبطريقة مهذبة .

(٣) عليه أن يسيطر على نفسه ، وأن يكون سيد أفعاله ، وبذلك يكون خير مرشد لزوجته فى كل أمور الحياة .

(٤) عليه أن يربط ضبط النفس بالخجل ، والحب ، والخوف ، والتواضع . وهذا ما فعله « هوميروس » الذى امتدح هيلين Helen لأنها خاطبت بريام Priam بقولها : «حماى العزيز أنت رجل أحترمه وأخشاه » وهو يعنى بذلك أن حبها له يختلط بالخوف والاحتشام[٢] .

ومن ناحية أخرى تحدث أوليس Ulysses إلى ناوسكا Nausicaa [٣] بهذه الطريقة « سيدتى لقد تملكتنى الدهشة والرهبة » ذلك لأن هوميروس كان يعتقد أن هذا هو شعور الزوج والزوجة كل منهما تجاه الآخر . وسيكون فى ذلك كل الخير لهما معاً ، فلا أحد يخشى بهذه الطريقة الخجولة ، من شخصية وضيعة وإنما تلك مشاعر الأرواح النبيلة تجاه بعضها بعضاً . فلقد كانت تلك هى مشاعر أوليس Ulysses تجاه زوجته بنلوب Penelope

---

(١) Aristotle, Economics, 1353-B (Vol. 2 p. 2149).

(٢) Ibid.

(٣) العذراء ناوسكا Nausicaa أميرة ذات جمال بارع فتان ، وهى ابنة الكنيوس الباسل ملك الفياكيين ، كانت أول من قابل أوليس بعد أن تحطمت سفينته عند الساحل الفياكى ، قارن أوديسة هوميروس ترجمة أمين سلامة ص ١٦٦ بنك الأدباء ـ القاهرة عام ١٩٦٠ .

لهذا ظل مخلصاً لها طوال مغامراته أثناء العودة [1] فى الوقت الذى أخطأ فيه أجاممنون فى حق زوجته من أجل كريسيس Chryseis [2] عندما أعلن فى اجتماع عام أن امرأة وضيعة من السبايا ، ومن جنس أجنبى ، لا تقل عن زوجته كليوتمنسترا Clytemnestra فى امتيازها الأنثوى ، فهذا أسلوب غير لائق تجاه أم أولاده وكيف يمكن له أن يقول ذلك قبل أن يعرف سلوكها تجاهه ؟ ! [3].

أما « أوليس » فهو من ناحية أخرى عندما تضرعت إليه ابنة أطلس Atlas أن يشاركها الفراش ووعدته بالخلود ، لم يقبل أن يجلب لنفسه صفة الخلود فى مقابل أن يخون الرقة ، والحب ، والولاء ، الذى تقدمه إليه زوجته ، واعتبر الخلود الذى يشترى بالخيانة أسوأ أنواع العقاب [4] أما استسلامه لـ « كيركى Circe » [5] فلم يكن إلا لإنقاذ رفاقه ، فقد

---

(١) سوف يتضح بعد قليل أن هذه العبارة ليست دقيقة ! .

(٢) العذراء كريسيس ابنة كاهن أبوللو التى أسرها أجاممنون وضمها إلى « خيمته الملكية » وقد شغف بها حباً ، وتضرع والدها كاهن الإله أبوللو أن ينتقم هذا الإله من أجاممنون ـ فاستجاب لضراعته ومنع الريح عن الأسطول حتى يرد أجاممنون ابنة الكاهن إليه ، كما اشترط لعودة الريح أن يضحى الملك اليونانى بابنته افيجينيا . أما كليوتمنسترا فهى زوجة هذا الملك ولم تكن مخلصة له .

(٣). Aristotle, Economics, 1353-B

(٤) هى الربة الخالدة كالبسو ـ ابنة أطلس التى احتجزت « أوليس » فى جزيرتها ، وطارحته الغرام قبل أن تفرج عنه ، ومن هنا كانت عبارة أرسطو غير دقيقة ، فهو « لم يرفض أن يشاركها الفراش » كما يقول وإنما رفض البقاء معها نهائياً ، والتخلى عن البحث عن طريق العودة إلى زوجته ووطنه ، فقد كان مطلبها كما قالت له : « أن تبقى معى هنا ، وأن تصبح من الخالدين » ولكنه رفض البقاء مع أنه « عندما حلّ الظلام اعتزل معها فى مغارة ، ورقد بجوارها متعانقين ، وقضيا ليلة مترعة بالحب ! » ، قارن أوديسة هوميروس ، ترجمة أمين سلامة ص ١٥٣ وأيضا Homer; The Odyssey, Book, VV, N, 4 . Penguin Books, P . 93-4 Trans by E . V . Rieu .

(٥) « كيركى » هى الربة الفاتنة ذات الغدائر الجميلة التى التقى بها أوليس فى مغامراته ، وبارزها بسيفه البتار فقهرها فدعته إلى وقف المبارزة والذهاب معها إلى بيتها : « خل عنك ، وضع سيفك فى غمده ، وهيا بنا نذهب إلى فراشى ، حتى إذا ما ضمنا الفراش معاً فى عشق ، استطاع كل منا أن يثق فى الآخر » ! لكنه أجابها بقوله : « وما الذى يضمن لى ألا تجعلينى ضعيفاً مخنثا إذا ما تجردت من سلاحى وملابسى ؟ لن أذهب معك إلى الفراش إلا إذا اقسمت يميناً لا حنث فيه ألا تغدرى بى ، وألا تكون لديك نوايا خبيثة » ، وعندما أقسمت الربة ذهب معها إلى فراشها الجميل ـ أوديسة هوميروس الترجمة العربية ص ٢٤٨ ، والإنجليزية ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

أعلن عندما استجاب لها أن لا شيء يعدل فى عينه جزيرته المحبوبة ، حتى وإن كانت وعرة وأنه لا يريد شيئاً سوى أن يرى زوجته وابنه ، وهكذا حافظ بحزم على إخلاصه لزوجته فلقى منها بدوره إخلاصاً مماثلاً (١) .

ويعتقد أرسطو أن « هوميروس » لخص الشرف العظيم الذى تضفيه رابطة الزواج على العلاقة بين الرجل والمرأة ، عندما قال على لسان أوليس مخاطباً ناوسكا : « إنى لأتوسل إلى الآلهة أن تمنحك زوجاً وبيتاً ، ووحدة فى القلب – فتلك هدية عظيمة ، وما من شيء أعظم من أن يعيش الرجل وزوجته فى منزل واحد متحدين متحابين ، فتكون هذه الحياة كمداً لأعدائهما ، وفرحاً لاصدقائهما أما هما فيعرف كل منهما صاحبه حق المعرفة (٢) .

* * *

(١) Aristotle, Economics, Vol . 2 p 2149 .

(١) أوديسة هوميروس . ترجمة أمين سلامة ص ١٧١ ، وقارن أرسطو « الاقتصاد أو تدبير المنزل » ، المجموعة الكاملة لمؤلفاته ، المجلد الثانى ص ٢١٥٠ .

خاتمـــة

كثيراً ما يقال إن العلاقة بين الفيلسوف والمرأة كانت على مر العصور علاقة سيئة مضطربة ، على خلاف علاقتها بالشاعر ، مثلاً ، أو الفنان بصفة عامة . وقد يقال فى تفسير هذه العلاقة السيئة : إن الفيلسوف يعمل فى حقل المجردات ، ويحلق فى سماء المثل فى حين أن المرأة تميل إلى الاهتمام بالمحسوسات والارتباط بأرض الواقع .

إلا أن هذا التبرير كان يمكن أن يصدق لو كنا نتحدث عن علاقته بزوجته . أما أن يكون رأيه فى « المرأة » بصفة عامة سيئاً بحيث لا يرى فيها سوى موجود أدنى من الرجل مهمته فى هذه الدنيا خدمته ورعاية أولاده وربما تخليده عن طريق الإنجاب ـ كما يذهب أرسطو – فلا بد لذلك من تفسير آخر هو ، فى ظنى ، خضوع الفيلسوف . فى الأعم الأغلب ، خضوعاً يكاد يكون تاماً لوضع المرأة الاجتماعى فى عصره . وربما كان جانب من تفسير هذا الخضوع أنه يشعر بما لهذه الفكرة المتدنية عن المرأة من نفع ، شأنه شأن الرجل بصفة عامة ، فوضع المرأة فى زاوية من زوايا المنزل يمكنه من التفرغ لبحوثه المجردة ، وتحليقه فى السماء كما يشاء !

ولقد سبق أن رأينا طوال هذا البحث ، كيف كان أرسطو « يُنَظِّر » وضع المرأة المتدنى فى عصره ، رغم وجود سيدات ، فى هذا الجو الخانق ، على درجة كبيرة من الذكاء ، ورجاحة العقل ، وقوة البصيرة ، فى مجتمع كان يقتل مواهب النساء جميعاً ، ولا يعترف بهن إلا خادمات للأب أو الزوج ، لأنهن قاصرات لا يجدن سوى أعمال المنزل ! ومع ذلك فقد عرف أرسطو نساء لم يكن من هذا الطراز : عرف فى بيللا Pella عاصمة مقدونيا امرأة على درجة كبيرة من الذكاء ، ورجاحة العقل وقوة الشخصية هى أوليمبياس Olympias والدة الإسكندر ، التى اتُّهِمَتْ بأنها كانت وراء المؤامرة التى أطاحت بزوجها الملك فيليب لتمكن ابنها من العرش . ولقد كانت هذه المرأة الحديدية تقف وراء ابنها تبث فيه روح العظمة ، والقوة ، والمجد ، وتؤنبه كلما وجدت فيه ضعفاً أو تردداً ، وتحتضنه فى الوقت الذى كان فيه أبوه « فيليب » مشغولاً عنهما بخمره ونسائه – فها هنا نجد مثلاً حياً لسيطرة الانفعالات وغلبة الشهوات على الرجل ، ورجاحة العقل ، والفكر المتزن عند المرأة ! ولقد عرف أرسطو هذه المرأة عن كثب إذ كانت تزوره لتطَّلِع على أحوال المدرسة

التى يُعلّم فيها الإسكندر وبعض أمراء البلاط ، وكان المعلم الأول يهرول مسرعاً للقائها عندما تصل عربتها الملكية ! ومع ذلك لم يراجع أفكاره عن المرأة قط . ومن المفارقات الطريفة أنه لم يعجب « أوليمبياس » ولم تقتنع به ، فقالت « ليس عنده ما يقوله من أفكار خلاقة ، وهو نحيل ألثغ » .

عرف أرسطو أيضاً الشاعرة سافو Sappho التى سماها سقراط بالجميلة ، وكان بذلك يعبر عن عبقريتها ، وقال عنها أفلاطون : إنها الربة العاشرة للفنون ! كما عرف المرأة الذكية البارعة ، التى كانت حديث أثينا « أسباسيا » Aspasia رفيقة بركليز حاكم أثينا الشهير - التى يروى المؤرخون أن بيتها كان منتدى للشخصيات الكبيرة فى اثينا فقد كان يحضر صالونها الأدبى : سقراط ، وأفلاطون ، وفيدياس ، وأنكساجوراس ، وسوفكليس ، ويوربيدس - حتى ليندر أن نجد طوال التاريخ امرأة كان لها « صالون » أدبى على هذا المستوى الرفيع. بل إن بعض الشعراء كانوا يسمونها « هيرا » أو الإلهة الملكة ! .

عاصر أرسطو هذه الشخصيات النسائية اللامعة ، كما استمع بالقطع ، إلى حديث أفلاطون عن ديوتيما Diotima ونظريتها فى الحب التى رواها فى محاورة « المأدبة » إلخ. لكن أرسطو غض الطرف عن هذه النماذج المضيئة اللامعة فى عصره ، ليأخذ بفكرة رجل الشارع ، وراح يبحث لها عن تبريرات وأسانيد ليقيم نظرية فلسفية متكاملة يستمد جوانبها الأساسية من أفكاره الميتافزيقية ، التى اعتقد أنها حق لا ريب فيه ، ثم أخذ يطبقها فى ميدان البيولوجيا ، والسياسة ، والأخلاق ، ليجعل من المرأة « رجلاً ناقصاً » ليس لها دور فى هذه الدنيا سوى الإنجاب وتربية الأولاد . وأخطر ما فى نظرية أرسطو أنه يذهب فيها إلى أن الطبيعة التى لا تفعل شيئا باطلاً - هى التى جعلت المرأة على هذا القدر من الدونية ، وليس للعادات أو التقاليد أو أفعال المجتمع ، ولا سيما المجتمع الذكورى ، دخل فى تحديد هذه الدونية .

قد يقال : وماذا فى ذلك ؟ وهل يمكن للفيلسوف أن يخرج عن إطار عصره . ؟ ألسنا نطالب أرسطو بأكثر مما فى قدرته عندما نريده أن يرتفع فوق أفكار العصر لينقذ المرأة مما هى فيه من أوضاع مشينة ؟ ألم يقل هيجل : إن كلاً منا هو ابن عصره ، وربيب زمانه ؟ ألم تعبر نظريته عن أفكار جميع المثقفين ، والمفكرين والشعراء ، والفنانين فى عصره ؟ ونحن بدورنا نرد على ذلك كله بما يلى :

إذا كانت الآراء والأفكار والعادات والتقاليد .. إلخ فى المجتمع الأثينى تحط من شأن « المرأة » فقد ذهب « السوفسطائيون » إلى أن هذه الآراء مكتسبة لا فطرية ولا طبيعة ، ومن ثمَّ فهى تتغير بتغير المجتمع ، وذهب زعيمهم « بروتاجوراس » إلى أن الإنسان ، لا الطبيعة ، هو مقياس الأشياء جميعاً . ومعنى ذلك كله أنه إذا كان هناك صراع فى الفلسفة اليونانية بين أنصار « الطبيعة » – أى الفطرة ، وبين أنصار العرف أو المكتسب ، فقد انتصر السوفسطائيون للفريق الأخير ، وكانوا من أعلامه ، فإذن كان فى عصر أرسطو من يرد الأفكار إلى العادات والتقاليد ، ولا يجعل فيها شيئاً من عمل « الطبيعة » التى أتعبها أرسطو وأثقل كاهلها بأفكاره ، ورأى أنها لا تفعل شيئاً باطلاً لأنها تؤيد فلسفته . ومع ذلك فقد رفض أرسطو الأفكار السوفسطائية وسخر منها ، وحاربها بعنف ، بل ذهب إلى أنهم غير جديرين بحمل لقب الفلاسفة !

وأخطر ما فى نظرية أرسطو أيضاً تأثيرها الهائل وسيادتها على الفكر البشرى طوال العصور الوسطى ، مسيحية و إسلامية معاً ، وغلبتها على عقول المفكرين ، أو قل : إنها لاءمت هواهم ، وسايرت عاداتهم وتقاليدهم وأعطتهم الأساس الفلسفى الذى يبقى وضع المرأة متردياً ، فلم تتغير هذه الأفكار إلا بعد أن تغير المجتمع الأوربى ولا سيما فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر ، وكان أول من حمل لواء الأفكار الليبرالية الجديدة هو الفيلسوف الإنجليزى جون ستيورات مل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) J. S. Mill فدعا بقوة إلى تحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، عندما كان نائباً فى البرلمان .

أما قبل ذلك فقد ظلت النظرية الأرسطية مسيطرة وإن اصطبغت فى العصور الوسطى بصبغة دينية . فربط الفلاسفة المسيحيون بين المرأة ، ولا سيما جسدها ، وبين الخطيئة الدينية، وأصبحت المرأة رمزاً للجنس ، ودعوة للشهوة ، و « رسول الشيطان » أو « بوابة جهنم » وأساس الرذيلة ، والمنزلق الخطر الذى ينبغى على الرجل أن يتجنب الوقوع فيه !

وفى استطاعتك أن تتلفت حولك لتجد معظم الأفكار الأرسطية وقد اصطبغت بصبغة دينية تارة أو اجتماعية واخلاقية تارة ، وهى فى الأعم الأغلب تدور حول « الجنس » . فنحن لا يشغلنا فى حياتنا شىء قدر ما تشغلنا المسائل الجنسية التى جعلنا المرأة تجسيداً لها ، وكأنها تمارسها منفردة ، وربما يعود ذلك إلى ما نعانيه من كبت جنسى ، أو قصور فى فهمنا لهذه الغريزة ، أو الممارسات السيئة لإشباعها .

إذا كانت « البيولوجيا » عند أرسطو تذهب إلى أن العنصر اللاعقلى فى النفس هو الذى يسيطر على العنصر العقلى عند المرأة ، ولهذا يغلب عليها سيادة المشاعر والانفعالات والشهوات .. إلخ فإننا لا نزال نردد هذه الأفكار بغير وعى دون أن ندخل فى حسابنا العامل الحاسم للتربية ، الذى يضع المرأة فى مجتمعنا وفى غيره من المجتمعات ، فى قالب خاص . ولقد أثبتت « مارجريت ميد M. Mead » عالمة الإنثربولوجيا الشهيرة - فيما أجرته من بحوث على المجتمعات البدائية .

أنه لا توجد فوارق طبيعية على الإطلاق بين الرجل والمرأة ، أو ما يسمى « بطبيعة الأنثى والذكر » سوى الفروق البيولوجية بالطبع - فى ثلاثة مجتمعات بدائية قامت بدراستها ، وأنّ المسألة ترد بكاملها إلى التربية الاجتماعية . فضلاً عما نشاهده فى بعض الرجال من سيطرة للانفعالات ، وغلبة للشهوات ، قد لا نجدها عند بعض النساء .

وإذا كانت « السياسة » عند أرسطو تذهب إلى أن المرأة لا تصلح للقيادة ، أو الرئاسة ، ولا « الحكم » أو الاشتراك فى إدارة الدولة ، أو القضاء .. إلخ فإننا كثيراً ما نردد هذه الأفكار ، وننتهى إلى أن كل ما تصلح له المرأة ، إن كانت فاضلة وصاحبة امتياز ، أن تكون « ربة منزل » ، بل كثيراً ما نقول ذلك باسم الإسلام العظيم الذى أشاد برجاحة عقلها وقدرتها على القيادة . انظر مثلاً إلى ما يرويه القرآن الكريم عن « بلقيس » تجد أنه يقول لنا : إنها كانت ملكة ، لكنها لا تحكم منفردة عندما تُقْدِم على اتخاذ قرار ، بل تدعو علْية القوم للتشاور معها وتبادل الرأى ، وتضع مبدأ سياسياً مهماً للحكم : هو إنه لا يجوز اتخاذ قرار خطير إلا بعد روية وتدبر وإمعان : ﴿ **قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنتُ قاطعة أمرًا حتى تشهدونِ** ﴾ (٣٢ النمل) بل إن الآيات الكريمة تبيّن لنا بعد ذلك مباشرة أن مَنْ دعتهم من القوم كانوا أشد منها اندفاعاً ، وأسرع انفعالاً وتهوراً ، عندما راحوا يلوّحون ، فى الحال باستخدام القوة : « قالوا نحن أولوا قوة ، وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » ، لكنها كانت أعظم تعقلاً وأكثر تريثاً ، وترويًا ، فرأت أن تجرب أمراً آخر هو الالتجاء إلى الهدايا .. إلخ . هذا ما يقوله الدين لمن شاء أن يقرأ ويعقل ، وهو نفسه ما يقوله الواقع المرئى أمام عيوننا ، فها هى « مارجريت تاتشر » فى إنجلترا الملقبة « بالمرأة الحديدة » لشدة عزمها وصلابتها ، ولم يقل أحد أن انفعالاتها وشهواتها أفسدتها ، وجعلتها غير صالحة للحكم ! وها هى « بى نظير بوتو » فى باكستان التى كان يلجأ إليها الرجال لحل منازعاتهم فى قريتها حتى قبل أن تصل إلى منصة الحكم ، وغيرها

كثيرات : أكينو فى الفلبين ، وأنديرا غاندى فى الهند ، وجولداmائير التى ذقنا المر على يديها ، فى إسرائيل ، وقل مثل ذلك فى فرنسا وتركيا ... إلخ ، ألا يجعلنا ذلك كله نفكر مرتين قبل أن نصدر أحكامنا تلك ؟ ألا نشعر بشىء من التناقض بين ما نراه فى الواقع وما نحمله فى رؤسنا ؟ والأخلاق عند أرسطو تجعل للمرأة أخلاقاً خاصة ، وفضائل مختلفة عن فضائل الرجل وأخلاقه – ونحن بدورنا نفعل ذلك ، فأخلاقنا وفضائلنا تدور ، فى الأعم الأغلب ، لا سيما بالنسبة للمرأة ، حول السلوك الجنسى ، وكلمة « الشرف » عند المرأة لا نعنى بها سوى العلاقات الجنسية ، فهى تفقد « شرفها » إذا مارست الجنس بطريقة غير مشروعة : فمن تسرق ، أو تتاجر فى المخدرات ، أو تغش يمكن أن تفعل ذلك وهى تحافظ على شرفها أما الرجل فيظل « شرفه » مصاناً مهما يكن له من سلوك جنسى مشين ، ما دامت زوجته أو أخته ... إلخ مستقيمة السلوك .. أى تخلف ! .

نحن ، فى الأعم الأغلب ، نغض الطرف عن كثير جداً من الرذائل الإنسانية : كالكذب ، والغش ، والجبن ، والأنانية ، والخداع .. إلخ لأن الفضائل الإنسانية التى تكون للإنسان بما هو إنسان لا أهمية لها عندنا ، أنخطىء ، إذن ، عندما نقول : إن هيراركية الأخلاق الأرسطية ما زالت مسيطرة علينا ؟ غير أننا لا بد أن نقول فى النهاية : إن ذلك كله لا يعنى أننا نقول أننا قمنا بنقل « نظرية أرسطو عن المرأة » بل نريد أن ننتبه جيداً إلى أن كل ما نقوله عنها يشبه تماماً ما كان يقول فلاسفة اليونان ، ولا سيما المعلم الأول ، واحتمال التأثر وارد بالطبع ، لكن الأرجح أن موقف الرجل فى المجتمعات الذكورية واحد ، وأنه يستفيد كثيراً من الوضع المتدنى للمرأة ، تماماً كما كان الأحرار يستفيدون من وجود نظام الرقيق فى مجتمعهم ، ولا يهم المرء بعدئذ إن كان بذلك يعمل على وجود رئة معطلة، ومعوقة للتقدم ، كان يمكن للمجتمع بأسره أن يستفيد منها .

* * *

مراجع البحث

أولاً : المراجع الأجنبية :

1 - Aristotle : " The Complete works" Two Vols ed. by J. Barnes, Princeton University, 1985 .

2 - Aristotle " Politics " Eng. Trans. by Sir E. Barker . Oxford .

3 - Aristotle : " Generation of Animals " Eng. Trans. by A. L. Beck Harvard University, 1942 .

4 - Bachelard, G : " La formation de l'Esprit Scientifique" Libraire Philosophique, J. Vrin, Paris, 1947 .

5 - Bacon, F : " The New Organon " ed by fulton H. Anderson. The Bobbs- Meril Company , 1960 .

6 - Bell. S. G . " Women from The Greeks to the French Revolution " Standford University press .

7 - Briody , Mary (ed) " Philosophy of Women " Hachen Publishing Company, 1983 .

8 - De Beauvoir (Simone) : " The Socond Sex " Trans. by H. M. parshley, Penguin Books, 1987 .

9 - De Beauvoir (Simone) " Old Age " Penguin Books .

10- Donaldson, James, " Woman : Her position and Influence in Ancient Greece and Rome, and Among Early Christians " Gordon Press N. Y . 1973 .

11- Eleshtain, Jean Beathke " The Family in Political Thought " The Harverter Press, 1982 .

12- Kagan, Donal (ed) " Sources in Greek Political Thought " The free press, N. Y. 1965 .

13- Homer : " The Odssey " Eng. Trans. by E. v. Rieu. Penguin Books .

14- Kennedy, Ellen Susan Mendus: " Women in Western Political Philosophy " The Harvester press, 1987.

15- keuls, Eva : The Reign of The Phallus Sexual Politics in Ancient Athens " University of California press, 1993.

16- Jaeger, werner : " Aristotle " Eng Trans. by R. Robinson, Oxford University . 1967 .

17- Lear, L. "Aristotle : The Desir of Understanding " Cambidge, 1988 .

18- Laertus, Diogenes " Lives of Eminent philosophers " Eng Trans. by D.D Hicks Harvard University The Leob classical Library .

19- Lioyd, G.E.R. " Aristotle : The Growth and Structure of His Thought " Cambridge University press, 1968 .

20- Lynda Lange : " Woman is not a Rational Animal in Discovering Reality " ed by Sandra Haerding and Merill B. Hin Tikk. D. Reidal Publishing Company .

21- Pomeroy, Sarah B. " Women in Classical Antiauity " Schocken Books, N.Y. 1975 .

22- Rendall, J. H " Aristotle " Columbia University, 1968.

23- Ross, W. D." Aristotle " Maridian Books, N. Y. 1959.

24- Sinclair, T.A " A History of Great Political Thought"

25- Susan M. Okin : Woman in Western Political Thoutht .

26- Spelman, Elizabeth : Aristotle and Politiczation of the Soul" in Discoverting Reality, ed. By Sandra Hading.

27- " A Philosphical Dictionary of Biology " ed by B Medawar Weidem Fold London, 1984 .

* * *

ثانياً : المراجع العربية :

(أ) ترجمات لنصوص أرسطو :

١- أرسطو : « الأخلاق » ترجمها عن اليونانية بارتلمى سانتهلير - وترجمها عن الفرنسية أحمد لطفى السيد .

٢- أرسطو : « السياسة » ترجمها عن اليونانية بارتلمى سانتهلير - وترجمها عن الفرنسية أحمد لطفى السيد .

٣- أرسطو : « السياسات » ترجمة الأب أوغسطينوس بربارة المؤسسة الجامعية للنشر بيروت عام .

٤- أرسطو : « أجزاء الحيوان » الترجمة العربية القديمة ليوحنا البطريق - نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى - وكالة المطبوعات بالكويت عام ١٩٧٨ .

٥- أرسطو: « طباع الحيوان » الترجمة العربية القديمة ليوحنا البطريق - نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى - وكالة المطبوعات بالكويت .

٦- أرسطو : « الخطابة » ترجمة عبد الرحمن بدوى - دار الشئون الثقافية العامة بغداد عام ١٩٨٦ .

٧- أرسطو : « فى النفس » ترجمة د . أحمد فؤاد الأهوانى وراجعها الأب جورج قنواتى عيسى - الباب الحلبى بالقاهرة .

(ب) مراجع عامة :

١- أبو حامد الغزالى « احياء علوم الدين » المجلد الثانى - دار الريان للتراث - القاهرة عام ١٩٨٧ .

٢- أحمد الخواجة « الآداب التعاملية فى فكر الإمام الغزالى » المؤسسة الجامعية للتراث والنشر - بيروت عام ١٩٨٦ .

٣- أحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى » نهضة مصر بالقاهرة عام ١٩٨٠ .

٤- ألفرد تيلور « أرسطو » ترجمة د . عزت قرنى - دار الطليعة بيروت عام ١٩٩٢ .

٥- أرنست باركر « النظرية السياسية عند اليونان » جزآن ترجمة لويس اسكندر مراجعة د . محمد سليم سالم - مؤسسة سجل العرب بالقاهرة - عام ١٩٦٦ .

٦- نارن و . و « الاسكندر الاكبر » ترجمة زكى على ، ومراجعة د . محمد سليم سالم مركز كتب الشرق الأوسط - عام ١٩٦٣ .

٧- تشارلز ألكسندر « روبنصن » « أثينا فى عهد بركليس » ترجمة د . أنيس فريحة لبنان ١٩٦٦ .

٨- أوديسة هوميروس ترجمة أمين سلامة - بنك الأدباء القاهرة عام ١٩٦٠ .

٩- ولديورانت « قصة الحضارة » حياة اليونان مجلد ٦ و ٧ ترجمة الأستاذ محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

١٠- د . عبد اللطيف أحمد على « التاريخ اليونانى » جزآن - دار النهضة العربية عام ١٩٧٦ .

١١- عبد الهادى عباس « المرأة والأسرة فى حضارات الشعوب وانظمتها » .
٣ أجزاء - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بدمشق عام ١٩٨٧ .

١٢- مونييك بتر « المرأة عبر التاريخ » ترجمة هنريت عبود - دار الطليعة بيروت .

١٣- محمد يوسف موسى « نظام الحكم فى الإسلام » دار الكاتب العربى .

١٤- « منقولات الجاحظ عن أرسطو فى كتابه الحيوان » - نصوص ودراسة ، بقلم د . وديعة طه نجم - منشورات معهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٩٨٥ .

١٥- لامب ، هارولد « الإسكندر المقدونى » ترجمة عبد الجبار المطلبى ـ المكتبة الأهلية ببغداد .

١٦- د . عبد الغفار مكاوى « سافو : شاعرة الحب والجمال عند اليونان » دار المعارف بمصر عام ١٩٦٦ .

١٧- جورج سارتون « تاريخ العلم » ترجمة د . توفيق الطويل ، و د . احمد فؤاد الأهوانى وآخرين ـ دار المعارف بمصر عام ١٩٦١ .

* * *

مؤلفات الأستاذ الدكتور
إمام عبد الفتاح إمام

أولاً : التأليف :

١- المنهج الجدلى عند هيجل « طبعة أولى دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ ـ طبعة رابعة دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ (العدد الثانى من المكتبة الهيجيلية) مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٢- « مدخل إلى الفلسفة » طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢ ـ طبعة خامسة ١٩٨٢ - طبعة سادسة مؤسسة عالم الكتب بالكويت عام ١٩٩٣ .

٣- « كيركجور : رائد الوجودية » المجلد الأول (حياته وأعماله) طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨٢ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت ١٩٨٣ العدد الثانى من سلسلة الفكر المعاصر.

٤- « دراسات هيجيلية » طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ ـ طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ (سلسلة المكتبة الهيجيلية) ـ طبعة ثالثة ، مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٥- « توماس هوبز : فيلسوف العقلانية » طبعة أولى دار الثقافة للنشر والتوزيع عام ١٩٨٤ ـ طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثالثة عام ١٩٩٣ طبعة رابعة مكتبة مدبولى .

٦- « تطور الجدل بعد هيجل » المجلد الأول « جدل الفكر » دار التنوير عام ١٩٨٥ طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ٨ من سلسلة المكتبة الهيجيلية) .

٧- « تطور الجدل بعد هيجل « المجلد الثالنى » « جدل الطبيعة » دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية) .

٨- « تطور الجدل بعد هيجل » المجلد الثالث « جدل الإنسان » دار التنوير بيروت عام ١٩٨٥ - طبعة ثانية عام ١٩٩٣ (العدد ١٠ من سلسلة المكتبة الهيجيلية) .

٩- « دراسات فى الفلسفة السياسية عند هيجل » طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ طبعة ثالثة ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

١٠ - « كيركجور : رائد الوجودية » المجلد الثانى : فلسفته ـ طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٦ - طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ .

١١- « أفلاطون .. والمرأة » طبعة أولى حوليات كلية الآداب جامعة الكويت عام ١٩٩٢ طبعة ثانية مكبة مدبولى بالقاهرة (سلسلة الفيلسوف والمرأة) .

١٢- « رحلة فى فكر زكى نجيب محمود دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ .

١٣- « الطاغية : دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى » سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٨٣ - ١٩٩٤.

ثانياً : بحوث ودراسات :

١- « المقولات بين أرسطو وكانط وهيجل » .. دراسة بحوليات كلية التربية بجامعة الفاتح بليبيا عام ١٩٧٦ .

٢- « مفهوم التهكم عند كيركجور » دراسة بحوليات كلية الآداب - جامعة الكويت عدد رقم ١٩ عام ١٩٨٣ .

٣- « الهيجيلية » دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثانى) معهد الإنماء العربى بيروت.

٤- « الهيجيلية الجديدة » دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثانى) معهد الانماء العربى بيروت .

٥- « الفلسفة الثنائية عند زكى نجيب محمود » ـ عالم الفكر بالكويت المجلد العشرين العدد الرابع يناير ١٩٩٠ .

٦- « مسيرة الديمقراطية : رؤية فلسفية » مجلة عالم الفكر بالكويت يناير عام ١٩٩٤.

٧- « هيباشيا : فيلسوفة الإسكندرية » مجلة عالم الفكر بالكويت المجلد الثانى والعشرين يونيو ١٩٩٤ .

ثالثاً : الترجمة :

١ ـ « الجبر الذاتى » رسالة كتبها بالإنجليزية الدكتور زكى نجيب محمود ـ الهيئة المصرية العامة للتآيف والنشر عام ١٩٧٢ .

٢- « العقل فى التاريخ » لهيجل - طبعة أولى دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٧٢ وطبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٠ - وطبعة رابعة ١٩٩٣ (العدد الأول فى سلسلة المكتبة الهيجيلية) .

٣- « روح الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط » اتين جلسون ـ دار الثقافة عام ١٩٧٢ .

٤- « فلسفة هيجل » تأليف ولتر ستيس المجلد الأول « المنطق وفلسفة الطبيعة » دار التنوير عام ١٩٨٣ وطبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الثالث من المكتبة الهيجيلية) .

٥- « فلسفة هيجل » تأليف ولتر ستيس المجلد الثانى « فلسفة الروح » الطبعة الثالثة عام ١٩٨٣ والرابعة ١٩٩٣ (العدد الرابع من المكتبة الهيجيلية) .

٦- « أصول فلسفة الحق » لهيجل المجلد الأول طبعة أولى دار الثقافة ١٩٨١- طبعة ثانية دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣ طبعة رابعة عام ١٩٩٣ (العدد الخامس من المكتبة الهيجيلية) . طبعة خامسة ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٧- « موسوعة العلوم الفلسفية لهيجل » طبعة أولى عام ١٩٨٣ دار التنوير بيروت طبعة ثالثة ١٩٩٣ (العدد السادس من سلسلة المكتبة الهيجيلية) طبعة رابعة ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

٨- « العالم الشرقى » المجلد الثانى من محاضرات فى فلسفة التاريخ لهيجل العدد التاسع من سلسلة المكتبة الهيجيلية طبعة أولى ١٩٨٥ طبعة ثانية ١٩٩٣ .

٩- « الوجودية » تأليف جون ماكورى سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٥٨ اكتوبر ١٩٨٢ - طبعة ثانية دار الثقافة بالقاهرة ١٩٨٧ .

١٠- « أصول فلسفة الحق لهيجل » المجلد الثانى دار التنوير بيروت عام ١٩٩٣ سلسلة المكتبة الهيجيلية ـ مكتبة مدبولى بالقاهرة .

١١- « هيجل والديمقراطية » تأليف ميشيل متياس - دار الحداثة بيروت عام ١٩٩٠.

١٢- « المعتقدات الدينية لدى الشعوب » تأليف جوفرى بارندر - سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ١٧٣ مايو ١٩٩٣ .

رابعاً : مراجعة :

١- « الموت فى الفكر الغربى » تأليف جاك شورون : ترجمة كامل يوسف حسين ـ سلسلة عالم المعرفة بالكويت عدد ٧٦ ابريل ١٩٨٤ .

٢- « الفلاسفة الاغريق : من طاليس إلى أرسطو » تأليف وجنرى . ترجمة د. رأفت حليم سيف - دار الطليعة بالكويت عام ١٩٨٥ .

٣- « الفكر الشرقى القديم » - تأليف جون كولر ترجمة كامل يوسف حسين - سلسلة عالم المعرفة بالكويت ـ عدد ١٩٩ .

خامساً : التآليف بالاشتراك :

١- « المنطق ومناهج البحث العلمى » للصف الثالث الثانوى بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية الليبية عام ١٩٧٧ .

٢- « دراسات فلسفية » للمستوى الرفيع بتكليف من وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية عام ١٩٩٢ .

سادساً : الترجمه بالاشتراك :

١- « أسس الليبرالية السياسية » لجون ستيوارت مل ، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور ميشيل متياس المجلد الأول - مكتبة مدبولى بالقاهرة عام ١٩٩٦ .

فهـــــرس

* * * * *

رقم الإيداع ٩١٠١ لسنة ١٩٩٥
I.S.B.N.
977-208-150-4

هذه السلسلة

« **الفيلسوف .... والمرأة** » - موضوع بالغ الأهمية فى مسيرة التنوير ؛ لأنه يُلقى الأضواء على وضع المرأة فى مجتمعنا العربى ، ويبيّـن السبب فى وصفهـا « بالرئة المعطلة » أو « ذلك الجنس الآخر » الذى يختلف عن جنس الرجال ! والواقع أن الصورة السيئة عن المرأة المنتشرة بيننا هى التى رسمها الفلاسفة ، وهم يعبّرون بذلك عن التراث السائد فى مجتمعاتهم ، مصداقاً لقول هيجل : « إن كلاً منا هو ابن عصره ، وربيب زمانه .. وأن الفلسفة هى عصرها ملخصاً فى الفكر » .. فأفلاطون ، وأرسطو ، وغيرهما من فلاسفة اليونان لخصوا فى أفكار نظرية مجردة « كراهية المرأة » ، ووضعها المتدنى الذى ساد التراث اليونانى .

وكذلك فعل فلاسفة المسيحية : كلمنت السكندرى ، وترتليان ، والقديس چيررم والقديس أوغسطين ، والقديس توما الأكوينى .. إلخ - مع إضافة مسحة من القداسة الدينية على أفكار اليونان . وقل الشى نفسه فى تراثنا العربى الذى نقل الفكر اليونانى وتأثر به تأثراً قوياً ..

ولم تبدأ هذه الصورة السيئة فى التحسن إلا عندما تغيرت ظروف المجتمع الحديث سياسياً واقتصادياً ، فظهر فلاسفة من أمثال : مونتسكيو ، وچون ستيوارت مل وغيرهما ، ودعوا إلى تحرير المرأة ، وإعطائها حقوقها كاملة .

وهذه السلسلة تهدف إلى تعديل الصورة السيئة التى استمرت فى بلادنا سنوات طويلة ، بالكشف عن أفكار روّج لها فلاسفة وثنيون عبّروا عن تراثهم ، ثم ثبتت فى أذهاننا . فمن منا لم يقرأ أو يسمع عن طيش المرأة ، وضعف العقل عندها وتغلب العاطفة والانفعال ، ونقص الذكاء ، وعدم قدرتها على القيادة والإدارة والحكم ، ووجوب خضوعها الكامل للرجل .. إلخ ؟ هذه كلها أفكار أرسطو لكننا أصبحنا نرددها على أنها أفكار مقدسة لا يأتيها الباطل !

الناشـــر